شغفها حبًا

شغفها حبًّا!

رواية

الأستاذ الدكتور
حلمي محمد القاعود

مبدعون
للنشر والتوزيع
نحو أدب راقٍ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

[يوسف: ٣٠]

تنبيه

«هذه الرواية من وحي الخيال، وأي تطابق بين الشخصيات
أو الأحداث غير مقصود. لذا لزم التنويه».

(١)

أنهي الأستاذ الدكتور العميد الجلسة الشهرية لمجلس الكلية، وأخذ الأعضاء في الانصراف من القاعة الكبيرة الفسيحة، وخلت الطاولة البيضاوية الممتدة بحذاء الجدار الطويل في القاعة المستطيلة؛ من الأساتذة الذين كانوا يحتلون الكراسي السوداء اللينة. وتنبه الأستاذ الدكتور عبده الإسكندراني إلى نفسه يجلس وحيدا دون أن يتوقف عنده أحد، أو يطلب منه أحد مرافقته إلى الخارج..

كانت رياح الخريف في الخارج تهز النوافذ الزجاجية، وتعصف بصوت مسموع، وضوء النهار تظلله غيوم خفيفة تحجب الشمس التي تسطع أحيانا، وتحتجب بفعل الغيوم المتقطعة أحيانا أخرى..

كان الدكتور عبده يرى العمداء عقب مثل هذه الجلسات في الجامعة يلتفّون حوله، من لم يسلم عليه قبل الجلسة يزاحم ليلمس يده بعد انفضاضها. وكانت الابتسامات اللزجة والانحناءات المتهافتة تلفه، وتستمر الزحمة أو الزفة من حوله، وهو يهبط الدرج حتى يصل إلى سيارته السوداء الفخمة التي تحمل رقما مميزا، يضع صاحبها في خانة الكبار في المحافظة أو هو أكبرهم بعد المحافظ فيما يفترض، وبعد أن يدوس السائق على محرك الوقود

بالسيارة ترتفع الأيدي لتشيعه بالسلامة، ثم ينفض الجمع زرافات تتحدث عن العبقرية الفذة والخلق الرفيع، والعدل المطلق لدى معالي الأستاذ الدكتور عبده الإسكندراني رئيس الجامعة - حفظه الله!

كان عميد الكلية يقف ومعه بعض الأساتذة يتناولون التعليق على بعض ما ورد في جدول الأعمال، وحين انتهوا من كلامهم انحرف العميد ليقول:

- هيا يا صاحب المعالي نشرب القهوة في المكتب!

بوغت الرجل فهناك من لايزال يذكره و يناديه صاحب المعالي. شعر أن الدنيا ما زالت بخير، وهناك من يوقره و يقدره!

لملم أشلاء نفسه، وابتسم في استرخاء بلا معنى، وقال:

- نعم، حان أوان القهوة في مكتبك!

- إذا نسرع..

وضحك العميد ضحكة بلا معنى، وارتفق ذراع معاليه وقطعا الطريق نحو المكتب، ومن حولهما بعض الأساتذة..

مكتب العميد رحب. أثاثه فاخر، وبه طاولة للاجتماعات المحدودة، وعدد من الرفوف المليئة بالكتب والدروع وشهادات التقدير. في الزاوية الملاصقة للباب مشجب عليه الأرواب التي يرتديها الأساتذة عند مناقشة الرسائل العلمية. مكتب العميد لا يضاهيه إلا مكتب النقيب أسامة أو سمسم كما يدلله رؤساؤه، فهو رئيس الحرس الجامعي بالكلية، وله أهمية كبري في مسيرتها،

ومكتبه يَغَصُّ دائما بالطلاب والطالبات وبعض الأساتذة، وكل فريق له دور مع سيادته بوصفه الباشا الذي يملك كتابة تقارير الصلاحية عن أبناء الكلية كبارا وصغارا، وبيده مفاتيح الرضا والغضب. الطلاب والطالبات يقدمن التقارير الشفهية عن المشاغبين والمشاغبات في المجال السياسي. يكشفون المعارضين للنظام والموالين له. ويبدون آراءهم في الأساتذة الذين تطول ألسنتهم داخل المحاضرات أو في مكاتبهم المزدحمة، وهو ما يفعله بعض الموظفين أيضا، أما الأساتذة الأصدقاء فيكتفون بشرب الشاي أو المثلجات ويترك بعضهم مظروفا به تقارير عن زملائهم.

العميد يجلس على مكتبه الذي يمثل نصف دائرة تشغل مساحة كبيرة، ويدور فوق كرسيه الذي يعلو ويهبط وفق الرغبة، وفي يده سماعة الهاتف الذي ينتقل مع دورانه فوق الكرسي إلى يده الأخرى، ويدل انهماكه في الحديث مع الجانب الآخر على أهميته وأهمية من يتحدث إليه..

- نعم معاليك!
- .....
- حاضر معاليك!
- .....
- إن شاء الله يا أفندم!
- .....

- أوامرك يا باشا!
- .....
- مع السلامة يا أفندم! مع السلامة.. مع السلامة!

التفت العميد إلى أستاذه:

- معذرة يا باشا. كانوا يريدون تذكيري بزيارة معالي الوزير غدا. سيكون الاجتماع في كليتنا. ليتك تشرفنا بالحضور. الوزير سيتناول موضوع الجودة. والمكان عندنا ملائم للاجتماع. الكليات الأخرى مبانيها ضيقة ومكتظة، وسيكون المحافظ ومدير الأمن وكبار رجال المحافظة في استقباله. سيمثل كل كلية ثلاثة فقط من الأساتذة. ورتبنا الأسئلة وطريقة إلقائها. الوزير يريد العودة إلى القاهرة سريعا. خصص للقاء ساعة واحدة فقط لارتباطه بجلسة مجلس الوزراء في المساء ومواعيد أخرى..

لم يعلق عبده الإسكندراني، واكتفى بهزة خفيفة من رأسه. كانت إحدى المدرسات قد فتحت باب المكتب واتجهت مسرعة صوب العميد، ولكنها لمحت الرئيس السابق للجامعة فانحرفت نحوه، وبصوتها العالي الخشن الذي يتندر به بعض الأساتذة الخبثاء، رحبت بمعالي الرئيس السابق وسلمت عليه وكالت له المدائح، فهو من أشرف عليها، ومنحها الدرجة لتكون الدكتورة مواهب (أو كرنبة هانم كما يسمونها فيما بينهم)، وقيل إنه هو الذي زوّجها بعد طول انتظار، ولكنها ما زالت في درجة مدرس حتى قاربت

الخمسين، ولم تنجب بحثا واحدا مذ ترددت الزغاريد في جنبات الكلية عقب حصولها على الدكتوراه! اكتفت بدرجة مدرس لتنال أكبر قدر من الساعات، وتوزع أكبر كمية من المذكرات التي قيل إنها مسروقة، وتجد في أستاذها ومشرفها ورئيس الجامعة السابق عونا لها في رحلة جمع عشرات الألوف من الجنيهات، وقيل إنها تحولها إلى دولارات خضراء تحتفظ بها حتى يرتفع سعرها!

- أهلا يا مواهب!

- أهلا بمعاليك يا ريس.

بدت مبتهجة ونسيت الموضوع العاجل الذي جاءت من أجله لتتحدث به إلى العميد. كان جسمها البرميلي الرجراج يميزها عن بقية قريناتها في الكلية، وشعرها يصنع صورة رمادية على جانبي رأسها فقد اختلط الشيب بما تبقى من شباب. كانت في حركتها تشبه قاذفة قنابل أو طائرة شبحية أو دبابة قديمة صدئة تصدر حشرجة صاخبة، وخاصة حين يرتفع صوتها الخشن عند الحوار أو النقاش. تتساقط الكلمات من بين شدقيها مثل القذائف الثقيلة. بدا الرئيس السابق مستسلما لترحيبها الجهوري..

دخل الساعي بصينية عليها أقداح الشاي والقهوة، وراح يكشف عن حفاوة ملحوظة وهو يمسح الطاولة الصغيرة أمام سيادة رئيس الجامعة السابق، ثم يصب القهوة لمعاليه وينتقل دائرا على العميد وبقية الأساتذة الذين حضروا تباعا.

لم تكن هناك فرصة للحديث في أمور بعينها، فقد كان معاليه

يتهيأ للرحيل وتوديع العميد. إنه جاء خصيصا لحضور اجتماع مجلس الكلية الشهري والتعرف على أحدث أخبارها، وأحوال الصراع على المناصب والتخطيط لردع المتمردين من الأساتذة. فهولا يشرف الكلية إلا نادرا من أجل طلاب الدراسات العليا الذين يكتفي عادة بتوزيع كتابه عليهم في محاضرة أو محاضرتين طوال عام الدراسة، ثم ينصرف إلى نشاطات أخرى خارج الكلية تدر عليه مكاسب كبيرة بحكم علاقاته المتشعبة والعميقة مع أقطاب الحزب الحاكم والنافذين من رجال السلطة والإعلام والثقافة.

كان العميد يودع معاليه خارج مكتبه، وجاء الدكتور سيد عبد الله ليصحبه حتى باب السيارة، ويحمل حقيبته، ويركب معه إلى بيته القريب من بيت معاليه.

- ما الأخبار يا سيد؟

اغتصب الأخير ابتسامة لزجة، وقال:

- كل خير يا معالي الرئيس.

- لا يبدو ذلك على وجهك. هل جد شيء في التحقيق.

بلع سيد ريقه، والتفت بوجهه الدائري وعينيه اللتين تبدوان كثقبين غائرين في وجهه المعتم. وقال في شيء من التوجس والقلق:

- يبدو أن ألأمور تمضي في غير الاتجاه المأمول.

- كيف؟ لقد أوصيت بك؟

- المحقق يبدو دقيقا، ويسأل في كل صغيرة وكبيرة ويكرر الأسئلة ويعيد صياغتها بأكثر من وسيلة وأظنه قرأ الأوراق وحفظها جيدا لدرجة أنه يسأل دون أن ينظر فيها!
- هل أجبت بما يرضيك؟
- لا أدري!
- هل تظنه متحاملا أو محايدا؟
- لا أدري.
- لم تعد لديك إجابة غير « لا أدري «؟
- لقد استغرق التحقيق عشر جلسات، وما زال مفتوحا..
- إذا لن ينعقد مجلس التأديب قبل أسابيع قد تمتد إلى شهور!
- البركة في معاليك.

اقتربت السيارة من بيت سيد عبد الله، وأخذ يستعد للهبوط، فودع أستاذه، وتواعدا على لقاء في الأسابيع القادمة لبحث الأمر تفصيلا، ومحاولة فهم الوضع وكيفية التغلب على الاحتمالات غير الطيبة.

❖ ❖ ❖

جر الأستاذ الدكتور عبده الإسكندراني ساقيه متجها إلى باب العمارة التي يسكن فيها، بينما كان السائق يجمع متعلقات معاليه في السيارة، ويسارع ليفتح باب المصعد، ويرافقه حتى باب شقته.

ارتمى معاليه على أقرب مقعد بينما جاء أحد الأحفاد مهللا

لعودة جده، وراح يتواثب هنا وهناك فرحا سعيدا بالجد الذي أخذ يسأله عن إخوته وبقية الأسرة، وينتظر تناول الغداء.. ولكن قلقا خفيا كان يراوده بسبب سيد عبد الله وحواره معه في السيارة.

❖ ❖ ❖

(٢)

سيد عبد الله من أبناء السويس الذين هُجّروا بعد هزيمة ١٩٦٧. حملته سيارة النقل وهو في مقتبل الشباب، مع أسرته إلى إحدى مدن الدلتا الصغيرة، فلم يجدوا مكانا يأويهم غير ركن في فصل بإحدى المدارس التي ضمت عشرات من الأسر التي وصلت قبلهم. كان كل فصل يضم أسرتين أو ثلاثا وأحيانا أربع أسر. ويتم الفصل بينها بملايات السرائر أو البطانيات التي وزعت عليهم من بعض الجمعيات الخيرية.

الحياة في المدرسة وسط هذا الحشد الآدمي صعبة وقاسية ومحرجة أيضا، وخاصة عند قضاء الحاجة في حمامات غير مناسبة. وفي الليل كانت الأصوات ترتفع بما يستحي المرء من ذكره وسماعه، وتفرض نفسها على الجميع باختراق آذانهم بما فيهم المراهقون والمراهقات..

فترة عصيبة عاشها سيد عبد الله حتى تحقق العبور وتم توقيع اتفاقيات الانسحاب من سيناء، وأخذت العائلات المهاجرة تعود إلى المدن المدمرة على ضفة القناة الغربية.

رفض سيد أن يعود إلى مدينته، وآثر أن يواصل تعليمه في مدينة المهجر، ويعمل في الوقت نفسه في بعض المهن الحرفية التي تكفل له حياة بسيطة معقولة، واستطاع أن يتخرج في كليته

بتقدير «جيد»، واستوعب لغة السوق من خلال عمله الذي لم يتوقف. ألفاظه وجمله وعباراته لا تمت بصلة إلى عالم المتعلمين أو المثقفين أو التهذيب بصفة عامة، ولكنه ينتمي بمعجمه وتراكيبه وصوره إلى السوق أو دنيا «المعلمين» بكسر الميم الأولى والثانية.

قال له زميله فتحي محروس:

- أنت ذكي يا سيد ـ فلماذا لا تجرب حظك في الدراسات العليا؟
- ما لي وهذه الدراسات؟ أنا ابن سوق. أبيع وأشتري، وأجري وراء سبّوبة وألتقط رزقي من هنا وهناك، وأنعم بالحرية بعيدا عن الوظائف وقيودها!
- إن الدراسات العليا لن تمنعك من التقاط رزقك. وقد تحقق نجاحا يؤهلك للتعيين في إحدى الكليات التي تنشأ حديثا وما أكثرها، وتحتاج إلى كوادر كثيرة!

أشعل سيد سيجارة، وراح يبلع الدخان، وينفثه في الهواء بطريقة تدل على التفكير وتقليب الفكرة في رأسه. وخاطب صاحبه:

- ذلك يقتضي حضورا مع الأساتذة يعطل عملي، وقد يحتاج الأمر إلى بعض المال لا أستطيع توفيره. وإذا وفرته فأنا في حاجة إليه.
- على كل، جرّب.. وسترى. إن لم يعجبك الحال فلن تخسر كثيرا.

كان صاحبه يحدثه انطلاقا من تجربته، فهو يعمل مع والده في

ورشة سباكة، ويكسب منها كثيرا، ودخل مجال الدراسات العليا، ومضى إلى آخر الشوط، وها هو يستعد لتسجيل رسالة الماجستير.

صاحبه لا يخجل من مهنته ولا يخجل من حمل حقيبة السباك وأدوات السباكة، وهو يقوم بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح أو تركيب، في الشقق المختلفة ومنها شقق بعض أساتذته.. وقد أغرى «سيد» بمواقفه هذه:

- أظن الأمر بالنسبة لك سهلا. تستطيع أن تقوم بأعمال المحارة مساء أو ليلا، إذا ذهبت إلى المحاضرات مبكرا أو نهارا.

كان سيد عبد الله فوق السقالة، وبيده جردل ماء فيه كوز للرش، والتقط أداة تثبيت الملاط على الجدار، وكانت على جانب فمه سيجارة تعوّد على تدخينها عند بداية العمل، وراحت يداه تعملان في وقت واحد؛ الأولى تثبت الملاط والأخرى تسكب الماء بالكوز على الأماكن الخشنة بقصد تنعيم صفحة الملاط التي ثبتها، وراح يفكر فيما قاله صاحبه السباك. هل يمكن أن يكون أستاذا جامعيا؟ ويرتدي البدلة الكاملة وربطة العنق والنظارة الملونة ويحييه الطلاب والموظفون، ويُهرع إليه السعاة يحملون حقيبته ويتوددون إليه انتظارا لنفحاته؟ هل يسلو مهنته التي تربى عليها وجعلته في غنى عن انتظار مرتب هزيل؟ إنه يشتاق إلى زملاء العمل ويجد لذة كبرى وهو يجلس معهم في المقهى الضيق، ويدخن معهم الشيشة أو يلعب الطاولة أو يتبادل معهم الرأي بشأن العمل منفردا أو مع آخرين. بل إنه كاد يصبح شيخ المهنة، ليحل

مكان الحاج محمد الطنطاوي الطاعن في السن، وقد رد سيد على من طالبوه أن يكون شيخا للمهنة بحكم ثقافته وذكائه بالاعتذار لأن أمامه مشوارا طويلا في المهنة، وأن الحاج محمد فيه البركة.

ارتدى سيد قميصا وبنطلونا وحذاء قديما. كان الجو مائلا للحرارة أواخر الصيف، وكانت أول محاضرة في الدراسات العليا يشهدها سيد بصحبة صديقه فتحي محروس، واستمع إلى الحوار الذي دار بين الأستاذ عبده الإسكندراني وزملائه الطلاب. أعجبته طريقة الأستاذ وهو يجلس في حلقة ضيقة من الطلاب والطالبات، ورآه لأول مرة يضحك؛ على العكس من المحاضرات التي كان يلقيها على طلبة الليسانس، ووجد نفسه يتجرأ ليناقش أستاذه ويسأل في بعض القضايا التي تدور حولها المحاضرة، وفوجئ بالأستاذ يمتدح أسئلته وذكاءه، وفي نهاية المحاضرة حمل سيد عبد الله حقيبة الأستاذ، حتى دخل مكتبه، فوضع الحقيبة فوق المكتب وظل واقفا والأستاذ يدق جرس البوفيه ليطلب العامل، ولكن سيد التقط اللحظة، وفهم أن أستاذه يريد مشروبا فقال لأستاذه:

- سأذهب فورا لأحضر ما تريده يا أستاذنا. هل تريد شايا أو قهوة؟

ذهب سيد وأحضر المطلوب، بعد أن طلب من العامل البقاء في مكانه، فهو سيقوم بكل شيء. قدم المشروب للأستاذ وظل واقفا في خضوع. وبعد أن تنبه الأستاذ لوقوفه أمره بالجلوس على كنبة بعيدة عنه قليلا.

سأله الأستاذ بعد فترة عن ظروفه وقراءاته، فأخبره بحقيقة أحواله وعمله الحرفي، وحياته وحيدا في المدينة.

شجعه الأستاذ بعد أن أثني على كفاحه في سبيل العيش، وبارك جهده من أجل الدراسات العليا، ووعده أن يقف إلى جانبه حتى يصل إلى شاطئ الأمان.

رقص قلب سيد عبد الله فرحا وهو يستمع إلى تشجيع الأستاذ له، وأدرك بذكائه أنه مقبل على عصر جديد!

❖ ❖ ❖

في قاعة المحاضرات جلس سيد مع زميله فتحي محروس الذي أنهى فترة التمهيدي، وبشره أن الرجل- يقصد الأستاذ- أبدى استعدادا كريما لمساعدته، وأن حياته منذ الآن ستتخذ طريقا آخر..

قال له صديقه في فرحة منتشية:

- أحب أن أبشرك أيضا أنه وافق على خطة البحث في الماجستير، وقال لي ابدأ العمل فورا ، وتغلب على العقبات بكل وسيلة.
- يبدو أنه رجل «لقطة»!

قالها بلغة السوق، وغمز بعينه لصاحبه، تعبيرا عن مكسب كبير في هذه الصفقة، وراح يدندن ببعض أغاني السمسمية التي كان يحفظها أيام كان في السويس..

إحنا البمبوطية ولا لنا مثال
تجار بحرية نعمل ف القنال
إحنا البمبوطية إحنا..

ولم تمض أسابيع حتى كان سيد منخرطا مع زملائه في الدراسة التمهيدية.. تعرف عليهم، وتفاعل مع بعضهم في إطار صداقة محدودة يفيد منها في تبادل الكتب والمحاضرات، كما تعرف على الأساتذة وحاول أن يتقرب إلى بعضهم ويعقد معهم علاقات شبه حميمية، وقدم خدماته في مجال المحارة، واستجلاب معارفه من أصحاب الحرف المختلفة للعمل بأسعار معقولة، ومتابعة أعمالهم في الدهان والسباكة والبلاط والنجارة وغيرها، حتى صار قريبا من هيئة التدريس والطلاب جميعا، وفي الوقت ذاته راح يرتب عمله بحيث يكون ليلا أو في الأيام التي تخلو من المحاضرات. كان مشدودا إلى الكلية بخيوط قوية. فقد اتسعت فرص عمله الحرفي مع الأساتذة والموظفين الذين عرفوه وألفوه، ووصل إلى أدق الأخبار والأسرار، وصارت أحشاء الكلية مفتوحة بين يديه. يعرف ظاهرها وباطنها، وطريقة الوصول إلى كل الأطراف صغرت أو كبرت!

لم يكد يمر عامان أو أكثر على سيد حتى أحرز درجة الماجستير قبيل صديقه السباك بعدة شهور، فقد فتح له الأستاذ «اللقطة» باب الأمل على اتساعه، وتساهل معه في كثير من المطلوبات، وزاد على ذلك أن وعده بمنحه فرصة الانتساب إلى

سلك هيئة التدريس، بإحدى جامعات الأقاليم الجديدة، فقد كان الرجل ضعيفا أمام خدماته الصغيرة التي يقدمها له وتمنحه شيئا من الزهو والمباهاة: كأن يفتح له باب السيارة، أو يحمل حقيبته إلى المكتب، أو يشتري له بعض أنواع السمك أو اللحوم أو الخضراوات والفاكهة ويقوم بتوصيلها إلى البيت، أو يذهب لغسل السيارة في مغسلة قريبة..

أخذ صديقه فتحي السباك يمزح معه، وإن كان القهر باديا في جوف كلماته وضلوعه:

- سبقتني يا سيد!

ووقفت الكلمات في حلقه، ولكنه استدرك لكي لا يلحظ عليه الكمد:

- أتيت بك إلى التمهيدي، وكنت ممانعا، وهأنت تقترب من الانضمام لهيئة التدريس. مبارك عليك يا صديق!

ابتسم سيد، وهتف في لغة السوق:

- جبرنا!

واستطرد:

- عقبى لك.. كلها فركة كعب وتلحق بي!

كان فتحي يعلم جيدا طبيعة صديقه سيد، والخدمات التي يؤديها، وأنه لا يستطيع أن يفعل مثله، ومع أنه يحترف مهنة السباكة إلا إنه كان حريصا على أن يضع نفسه في موضع بعيد عن الامتهان

أو المؤاخذة من أي أحد. في أعماقه يرفض سلوك سيد، ويزدريه، ولا يحب ممارسته. هذا ما يعزّيه عن تأخر مناقشة رسالته التي بذل فيها جهدا مضنيا. وكان يثق أنه سيلحق بصاحبه في يوم ما، وربما يتجاوزه.

❖ ❖ ❖

(٣)

يسكن سيد في غرفة في أحد البيوت بإحدى الحارات. تعرف على السكان جميعا. رجالا ونساء وأطفالا. لا يلتقي بهم كثيرا، فهو في النهار واقف على السقالة، أو يذهب إلى الكلية، وفي الليل يرابط بالمقهى على ناصية الحارة، أو يكمل عملا لم ينته منه في النهار. كانت له قدرة غريبة على التقاط الأخبار والتعرف على الآخرين وأخبارهم ولو لم يلتق بهم، بالإضافة إلى استقطاب من يحتاج إليهم، أو يتبادل معهم المنافع.

أنست إليه صاحبة البيت العجوز، وكانت تمنحه في بعض المناسبات طبقا مما تطهوه، أو تعده في مطبخها، وترسله إليها بوساطة ابنتها الشابة التي لم تحصل من التعليم إلا على شهادة متوسطة، ولم تجد وظيفة مناسبة. ساعدتها ظروف أمها الميسورة نسبيا على الجلوس في البيت تحلم بالعريس. كان الرجل الذي تحلم به هو الأستاذ سيد الذي تراه يوميا بصورة شبه دائمة عند دخوله وخروجه ، وعند حديثه لأمها في شأن أو آخر. تحلم به عريسا. إنها تناديه بالأستاذ مع أن الآخرين في الحارة والمقهى تعودوا على تعريفه بـ«المعلم»، ولكن الفتاة ترى أن مناداة سيد باسم الأستاذ يرفع أسهمها عنده.

تجرأ سيد ذات مرة، وقال لها بطريقة مباغتة:

- اشكري الست الوالدة. وقولي لها يا سعاد إنني أشتهي الملوخية بالأرانب!

تضرج وجه سعاد بالحمرة فأضفي على هيئتها نوعا من الجمال الرقيق الذي يصنعه الحياء:

- من عيني يا حضرة الأستاذ. إن شاء الله عندما تعود من الشغل، تجد الملوخية والأرانب.

تدارك نفسه:

- لا تصدقي يا سعاد. كنت أمزح!

ردت بثقة وعزم:

- أنت واحد منا يا أستاذ. وطلباتك أوامر!

كان الحلم يداعب فؤادها أن تكون زوجا لهذا الأفندي الذي يعمل في المحارة، ويحمل شهادة. وكانت تتصور أن الطعام هو أقرب الطرق إلى قلب الرجل، ووجدت فرصة نادرة في طلبه الأرانب بالملوخية، التي جهزتها بالفعل، ووجد في تذوقها طعما خاصا أنعشه، وجعلت الفتاة تحظى باهتمامه.

استطاع سيد أن يجعل من سعاد مصدرا للمعلومات عن أسرتها والجيران، راوده التفكير أن ينالها بطريقة لا تقيده بها رسميا، لأنه يفكر في الانتقال إلى مكان أفضل عندما يحصل على الماجستير، ثم إنه يرى الارتباط الرسمي مزعجا له ولبرنامجه اليومي في العمل والدراسة والمقهى وسهرات الزملاء من رجال الحرفة. لم تكن لديه مشكلة فيما يتعلق بالجنس الآخر، كان يقضي حاجته

بطريقته الخاصة عبر اللقاء مع بائعات الهوى اللاتي لديه قدرة على التعرف عليهن بخبرته التي اكتسبها في مدارس الإيواء. فقد كان المجال هناك مفتوحا بسبب التكدس في الفصول، واعتياده وهو في عنفوان المراهقة على سماع التأوهات والتشنجات الليلية من كل الأركان. كانت فترة صعبة كشفت ستر الأسر، وأسقطت كثيرا من التقاليد، وهوت بالآداب العامة التي تحكم العلاقات بين الرجال والنساء، وأشعلت الرغبة في عروق الشباب والفتيات إلا من رحم الله.

كانت الحارة قديمة إلى حد ما، مع أنها نشأت ضمن عشوائيات المدينة، ولكن بيوتها تبدو متماسكة، و ميزها المقهى الذي يجلس عليه الحرفيون، ومن بينهم سيد عبد الله وزملاء المحارة، كان في الحارة بعض المحلات الصغيرة لبيع البقالة، والدواجن، والخردوات المتواضعة، وورشة للحام، إلى جانبها محل لتأجير الدراجات، وافتتحت على الناصية أخيرا صيدلية صغيرة يقف فيها شاب حديث التخرج قليل الكلام.

معظم سكان الحارة تحت الطبقة المتوسطة وفوق الطبقة الفقيرة، يمكن القول إنهم ميسورون أو مستورون على كل حال، وكانت سعادة سيد بوجوده في الحارة أن أهلها عرفوه، وكثيرا ما جلبوا له زبائن من الحارات والشوارع المجاورة، فقد شعروا أنه واحد منهم، ولكنه مع ارتياحه في الحارة إلا إنه كان في داخله يطمح إلى مكان آخر، و إن لم يجد الوقت الملائم للوصول إليه.

في طفولته كان يسكن شقة صغيرة تضم أسرته كثيرة العدد، كان لا يرى أباه إلا في الليل، يعود إلى البيت بعد أن ينهى عمله في البحر. كان رفاقه الصبيان في المدرسة يقولون عنه: « البمبوطي يكسب كثيرا و يصرف كثيرا».

لم يعرف معنى الجملة، ولكنه كان يسمعها ولا يفكر فيها.

ذات يوم سأل أمه عن معناها. زوت ما بين عينيها، ومطت بوزها إلى الأمام، وأمرته بالصمت.

ركب رأسه وأصر على معرفة معنى الجملة ومحتواها. ولكنه أجل المحاولة إلى وقت آخر.

بعد أيام قال لأمه:

- أريد أن أعرف معنى «يكسب كثيرا و يصرف كثيرا».

لم تتردد أمه في صفعه على وجهه فشعر بلسع النار، وترك البيت متجها إلى زميل له يسكن قريبا منه، وقص عليه ما جرى، فنظر إليه زميله باستهانة، وقال له:

- معناها سهل جدا. سمعتهم في الميناء يقولون: إنه يشرب منقوع البراطيش في الحانة بما يكسبه.

تساءل في براءة:

- منقوع البراطيش؟

- نعم منقوع البراطيش!

- وما هو؟

- ألا تعرفه؟!

- لا.

- إنه المشروب المحرم.

بدأ ذهنه يستعيد بعض ما كان يجري بين أبيه وأمه، من شجار. كانت تتطاير فيه الكلمات حول الشرب والسكر والخمر وغضب الله.. وأخذ يصل إلى المعنى رويدا رويدا حتى عرفه، وحاول في يوم أن يقلد أباه، ولكنه لم يجد ثمن المشروب فأجل المسألة إلى حين..

كان يخرج في أيام الصيف إلى الشاطئ مع إخوته. يرتدون قمصانا طويلة على اللحم دون سراويل، لا يعرفون من أين جاءت بها أمهم. ينتشرون لجمع بقايا السمك الصغير الذي يتسرب على الرمال من الشباك والتجار. يملأون الصفائح التي بأيديهم، يبيعونه بقروش ذهيدة يعودون بها إلى الأم التي تغطي بها تكاليف الطعام البسيط.

عاد سيد ذات يوم دون أن يحصل على قرش واحد. فكان نصيبه علقة ساخنة من أمه. من يومها كان القرش هدف سيد وغايته. يجب أن يعود إلى البيت بالقرش. ينبغي أن يملأ جيبه بالقرش. لا يساوم إلا من أجل القرش. لا شيء يقف في طريق القرش.. هكذا نشأ سيد وشبّ لا يعرف غير القرش. يعمل في كل شيء طالما سيعود عليه بالقرش. لا يخجل ولا يستحي من أي عمل يحمل إلى جيبه القرش.

كان تلميذا في الإعدادي وهو يعمل من أجل القرش، وفي الثانوي

كان يعمل من أجل القرش، وفي الجامعة كان يعمل من أجل القرش. وبعد الجامعة راح يعمل من أجل القرش. جرب أعمالا كثيرة في مراكب الصيد. حلقات السمك. جراجات السيارات. تقديم الشاي في المقاهي. تلبية الطلبات في المطاعم.. حتى انتهي إلى مهنة المحارة عاملا يحمل المونة، ثم مساعدا للمعلمين، ثم مستقلا بنفسه له مساعدون. لم ترقه الوظائف التي كان يتهافت عليها زملاؤه. ولكنه اختار الطريق الذي يمنحه حرية العمل ومضاعفة القرش.

لم يشغله العمل عن التحصيل الدراسي. كان ذكيا ويحفظ ما يقوله المعلمون، وربما كان يكتفي بسرده في الامتحانات إن لم يسعفه الوقت لمراجعة الكتاب جيدا. وكان يبهر زملاءه في الفصل بحصوله على درجات عالية ، تفوقهم في بعض الأحيان..

كان وجود القرش في جيبه يصنع له مركزا قويا في البيت؛ أمه اعتمدت عليه بوصفه رب الأسرة البديل عن الأب المغيّب. صار يأمر وينهى في أخوته. لم تكن له هوايات غير القرش.

في الثانوية جذبه زميل له إلى منظمة الشباب الاشتراكي. جلس مع رفاقه. آمن بالزعيم الملهم الذي سيحقق الاشتراكية والمساواة بين المواطنين، ويقضى على الرأسماليين والإقطاعيين، ويجعل الفقراء فوق الأغنياء. شعر بشيء من النشوة، راح يمضي قدما في سياق الترقي القيادي بالمنظمة. أصبح من القلائل الموثوق بهم، يقدم تقاريره عن أعداء الثورة والزعيم، لم يعد لديه مانع أن يكتب التقارير في أقرب الناس إليه ولو كان أبوه، المهم أن يرضى الزعيم

ولو كان الزعيم لا يعرفه.

قال له أحد رفاقه في المنظمة:

- تقارير كثيرة وعميقة وقاتلة!

- في سبيل القيادة التاريخية كل شيء مباح!

اندهش زميله:

- كل شيء مباح؟!

رد عليه بثقة وجسارة:

- ولو كانت كتابة التقارير ضد الآباء والأمهات!

حدثت الهزيمة فأبلى بلاء حسنا في الوقوف إلى جانب الزعيم الذي لم يقابله أبدا، من خلال المظاهرات التي طالبته بالبقاء بعد التنحي، ورفع الروح المعنوية للشعب المهزوم.

تمكن سيد أن يقود خلية في التنظيم الطليعي. ومع أن هذه الخلايا كانت لا تعرف بعضها ولا قياداتها العليا، فقد شعر أن العيون مركزة عليه ليتبوأ مركزا مرموقا.

ومع ذلك لم يترك عمله الذي وجد فيه فرصته لجمع القروش، وعرف كثيرا من أهل المهنة، وتوطدت صلته بهم.

كان في السنة الأخيرة بالجامعة، وأحدثت حرب الاستنزاف زلزالا في مدن القناة بسبب القصف اليومي المتبادل الذي أتى على كثير من البيوت والمباني والمؤسسات. الجيش في الخنادق ليتفادى القذائف، أما المدنيون فهم مكشوفون للعدو الذي لا يبالي

بقوانين الحرب، فكان التهجير إلى الدلتا والصعيد، الذي حفر في وجدانه أثرا عميقا.

عقب وفاة الزعيم في سبتمبر ١٩٧٠ الفجائية، تهاوى حلمه بالمنصب القيادي في التنظيم، مع أنه تخرج وحصل على الليسانس.

كانت محاكمة ما أطلق عليه مراكز القوى ضربة موجعة للتنظيمات الاشتراكية، والتنظيم الطليعي في مقدمتها، فترك عائلته في مركز الإيواء يتلقون معونات الدولة، وانطلق يعمل بعيدا عنها ويعيش منفردا في المدينة التي درس في جامعتها، وحفظ دروبها وملامحها، واستطاع أن يجد فيها مجالا رحبا للعمل وإثبات الوجود خارج المنظمة والتنظيم.

❖ ❖ ❖

في المقهى عرف شرب الشيشة إلى جانب التدخين، وفي بيوت رفاق المهنة والسهرات الليلية، أعاد سيرة أبيه، وألف الطريق إلى المشروب الحرام، ومرافقة الساقطات. ومعهن كان يستعيد تأوهات مركز الإيواء في الليل، فيفرغ طاقته الحبيسة، مستشعرا تعويضا لشيء ما لا يعرف ما هو.

فكر ذات ليلة أن ينال سعاد ابنة صاحبة البيت. راح يضع الخطط التي توقعها في حبائله معتمدا على سذاجتها، وحلمها أن تحصل على عريس يوفر لها الأمن والسعادة.

بيد أن الرياح لم تكن مواتية!

❖ ❖ ❖

(٤)

فكر الأستاذ الكبير عبده الإسكندراني أن يجد وظيفة لتلميذه الخدوم سيد عبد الله.

رأى أن بعض المحافظات تتنافس في إنشاء جامعات إقليمية تبدأ بكلية، أو كليتين، إحداهما غالبا للتربية بعد التفكير في إلغاء دور المعلمين والمعلمات، والأخرى للآداب.. ثم يتوالى إنشاء كليات أخرى نظرية وعملية..

كان ذلك يتم دون أن تكون هناك هيئات تدريس كافية مدربة أو أطقم إدارية تفرق بين العمل في المدارس وتقاليد الجامعات، فكان الاعتماد على ندب أساتذة من الجامعات العريقة، وبعض الموجهين الكبار في إدارات التعليم، وموظفين من هذه الإدارات، وأضحت الكليات الجديدة مجرد مدارس مثل مدارس التعليم العام، ويتعامل معها الجمهور على هذا الأساس..

المواطنون والطلاب يذهبون إلى الأساتذة في بيوتهم أو على المقاهي أو الاستراحات أو يلتقون بهم على محطات السكة الحديد أو مواقف السيارات والحافلات للتوصية على أبنائهم، أو مناقشة نتائج الامتحانات، أو الاعتراض عليها، ورأى بعض المنتسبين للإدارات والمؤسسات المهمة أن بإمكانهم التدخل لدى أعضاء هيئة التدريس أو قيادات الكلية والجامعة لتعديل نتائج

أقاربهم وفقا لقانون المصالح المتبادلة العرفي!

أخذت الجامعات تفكر في تأسيس هيئات تدريس مستقلة. فأعلنت عن وظائف في تخصصات مختلفة من الحاصلين على درجات علمية من الجامعات بدءا من المعيدين إلى الأساتذة..

خاطب الأستاذ الكبير بعض أصدقائه في جامعة إقليمية بالوجه القبلي للإعلان عن وظيفة لتلميذه الخدوم الذي منحه الماجستير.

استجاب الأصدقاء، وظهر الإعلان، وبعد شهور قليلة كان سيد عبدالله مدرسا مساعدا بكلية جامعية..

قال لأستاذه:

- المسافة بعيدة، وسأفقد عملي الحرّ وما يدره من دخل أكبر!

ابتسم أستاذه في شيء من الشفقة والدهشة:

- سيد! تذكر أنك الآن مدرس في الجامعة. ستحصل على مرتب محترم، ويجب أن تظهر بالمظهر اللائق أسلوبا وتعاملا وهيئة.

تساءل في شيء من التحسّر الخفي:

- يعني، أترك المهنة نهائيا؟

ضحك الأستاذ:

- لا تعدْ إليها أبدا!

حاول أن يبتسم، مازحا:

- إن يدي تأكلني للإمساك بالمحارة!

- لقد بدأ عصر الكتاب يا سيد!

كانت كلمات الأستاذ قاطعة لإغلاق المناقشة.

❖ ❖ ❖

في القطار السريع كان سيد يجلس في مقاعد الدرجة الأولى الفاخرة المكيفة لأول مرة. كان يرتدي حلة جديدة وحذاء جديدا وربطة عنق جديدة.

أنعشه التكييف، فقد كانت الدنيا خارج القطار تكاد تشتعل نارا. في يوليو ترتفع الحرارة إلى مدى يشعر بجهنم. والحلة ثقيلة على جسده. كان يتمنى أن يرتدي قميصا وبنطلونا، ولكن ظروف التعيين والوظيفة الجديدة تفرض عليه أن يكون في مظهر مناسب.

في المرات السابقة التي كان يقدم فيها أوراقه للكلية، والتجهيز للتعيين كان يسافر في القطار العادي، ويرتدي ملابس بسيطة، ولكنها نظيفة ومكوية، وكان يعاني من الزحام والتدافع، والضوضاء الشديدة، وافتقاد القطار للحمامات الصالحة. ولكنه كان يتحمل ويصبر. هذه المرة الأمر مختلف نسبيا، القطار سريع، والحمامات معقوله إلى حد ما، والضوضاء أقل، والحركة انسيابية دون تدافع..

قالت له صاحبة البيت العجوز وهي تودعه قبل السفر:

- ما شاء الله. إنك عريس!

تصنّع الخجل، وردّ عليها بكلمات مجاملة، وأردف:

- لن أغيب طويلا، والغرفة ستبقى لحسابي.
- تأتي بالسلامة يا بني!

في المسافة الطويلة التي قطعها القطار السريع، كانت سعاد لا تبرح مخيلته. الملوخية بالأرانب طعمها في أنفه وعلى لسانه، ولكن تخطيطه الفاشل للإيقاع بها

ظلّل وجهه بشيء من الكآبة.

حاول أن يقنعها بالجلوس معه في غرفته ليتحدث معها في بعض الأمور، ولكن الفتاة بحس غريزي يصنعه الحياء وربما الخوف، قالت له، وهي واقفة بالباب:

- أنا أسمع كلامك يا أستاذ!

تصنّع الدهشة:

- هل أنت خائفة مني؟
- أبدا، ولكن الأصول...

فوجئت به يطبق على ذراعها ويحاول أن يجذبها إلى داخل الغرفة، ولكنها تخلصت منه بقوة، وتراجعت سريعا إلى الخلف، قائلة:

- في وقت آخر نتحدث.

أذهله الفشل. شعر وهو الخبير بالمسالك التي توقع النساء، بالفشل لأول مرة. لم تظهر الفتاة بعد ذلك على مدار الفترة الطويلة التي سبقت سفره إلى الوظيفة الجديدة. وظل يقلّب في ذهنه

الأسباب التي أدت إلى فشله الذريع. لقد كانت الفتاة منبهرة به، وتحاول التودّد إليه، وظن أنها سهلة وقريبة المنال، فإذا بها في أول الخطة التي رسمها تهزمه بالضربة القاضية غير المتوقعة. هل كانت الخطة ساذجة؟ هل تصور أن الأمر بسيط ويمكن أن يسير كما يحب؟

الغريب أنه لم يفكر في نتيجة فعلته لو نجحت الخطة. ماذا سيكون موقفه إزاء الفتاة، وأمها؟ كيف لو انقلب الأمر إلى فضيحة في الحارة والمقهى وأصحاب المحلات؟ كيف يواجههم حين يغضبون لشرفهم وشرف الحارة، وشرف البنت؟

لم يفكر في ذلك أبدا، وهو غالبا لا يفكر في العواقب. تعود أن ينتهي الأمر مع الساقطات بهدوء. مع هذه الفتاة الساذجة لم يتوقع النتيجة!

رسخ في رأسه يومها أن شعورا قويا تولد لديه أن ينال الفتاة، مهما كانت النتائج! لا مانع لديه أن يتقدم لأمها رسميا. ليست لديه تجاهها مشاعر محددة، ولكنه يريد أن يتملكها بأية طريقة، لم تستعص عليه امرأة من قبل. هل بنات الطريق، مثل بنات الناس؟ ألم ير أن الفتاة تميل إليه وتتمناه ولو لم تصرح بشيء؟ كانت عيناها تقولان كل شيء، ولكنه فهم ما تقول العينان بطريقته الخاصة..

شعر وهو في القطار أنه يغادر عالما قديما مألوفا له، تعود عليه، إلى عالم آخر مجهول لن يجد فيه أُنس الحارة، ولا لذة المقهى، ولا متعة سهرات الزملاء الليلية.

ظل ساهما وشاردا عما حوله. لم يعِ ما يجري في القطار من حركة ركاب يصعدون أو يهبطون. ولا ما يقوم بعض سعاة البوفيه في خبط الملاعق على الصواني، والباعة من نداءات على بضائعهم أو أشيائهم المتواضعة أو الصحف اليومية والمجلات المرتجعة التي تهتم بشئون الفنانين.. قطار فاخر وباعة مثل هؤلاء؟ كل شيء ممكن في أم الدنيا! كان يتصور أن القطار الفاخر يمثل حالة مختلفة عن القطارات العادية التي يركبها الفقراء وعامة الناس، ولكنه وجد الأمر متشابها.

لم يشعر بجيرانه في كرسيه والكرسي المقابل، ولم يعرف على مدى المسافة الطويلة من هم؟ ولا ماذا يقولون؟ ولا محطات نزولهم؟ كان غائبا في مسألة سعاد!

تنبه على صوت بائع الصحف. تناول جريدة وراح يتصفحها. لم يكن له اهتمام بالقراءة خارج المقررات الدراسية، أو موضوع الماجستير. لم يطالع صحيفة إلا نادرا، ولم يشتر كتابا ثقافيا. كان يرى الإنفاق في غير الطعام والملابس والمقهى، و إيجار السكن عبثا لا يجوز ، فالقرش هو محرك الدنيا من حوله، والطريق إلى إرضاء أمه!

في الصحيفة لم يجد شيئا يثيره، كانت الأخبار الأساسية تتحدث عن الصلح مع اليهود الغزاة، ولقاء الرئيس المؤمن مع مناحيم بيجين رئيس وزراء العدوّ في استراحة الإسماعيلية، وقصف الأخير المفاعل العراقي بعد وصوله إلى فلسطين المحتلة. يعود المهجرون إلى بيوتهم

التي تهدمت بفعل القصف من جانب العدو وطائراته، بعضهم استوطن في أماكن التهجير، واندمج فيها. عادت أسرة سيد عبدالله إلى شقتهم الصغيرة، مع وعد من الحكومة ببناء عمارات توزع شققها على العائدين تعويضا لهم. تذكر إخوته، لقد كبروا، وحصلوا على شهادات متوسطة، واحترفوا مهنا تدر عليهم عائدا لا بأس به.

صديقه مصطفى محروس الذي يعمل بالسباكة أفهمه منذ زمان أن المستقبل لأصحاب الحرف والمهن الحرة. الوظائف غير مثمرة، المرتب الذي يدون في الاستمارة، لا يزيد كل عام إلا جنيهات أقل من أصابع اليد الواحدة. اما الشغلانة أو السبوبة الواحدة فهي تمنح صاحب الحرفة رزقا واسعا!

قال لواحد من إخوته ذات مرة:

- لماذا لا تطلب وظيفة من القوى العاملة؟

رد عليه بثقة:

- الوظيفة عائدها ضعيف. أما الحرفة فهي ذات عائد مضاعف.. وأردف..

- في زمن الانفتاح انقلبت الأوضاع خرج لصوص الثورة من تحت الأرض وأصبحوا مليونيرات، وصار الموظف يكاد يتسول. أما الحرفي فيمكنه أن يتزوج طبيبة أو مهندسة..

ثم ضحك قائلا:

- لا تخف علينا يا أخي..

مذ فارقهم لا يتدخل في حياتهم إلا بقدر. يرسل لهم مساعدة مالية بسيطة أو يزورهم زيارة خاطفة نادرة. لا يناقش أباه في شيء، فهو كما هو يشرب، ويسهر، ويعود بعد أن ينام الأولاد، وأخذت حركة السفن تزداد منذ افتتاح القناة بعد تطهيرها، ومهنة البمبوطي لابأس بها، ولكنه يضيّع معظم ما يحصل عليه من نقود وسجائر وروائح وبعض البضائع البسيطة. يبيعها وينفق على متعته، وما يتبقى يسد به فم امرأته السليطة.

توقف سيد عند صفحة الحوادث. هي وحدها ما يهتم به حين تقع في يده صحيفة يومية. يقرأ الحادثة ويتأمل فيها، ويقارن بين مرتكبي الجرائم فيما بينه وبين نفسه. أيهم كان مجرما ذكيا، وأيهم كان خائبا. يجد متعة في قراءة أخبار الجرائم الدموية. لا تعنيه أخبار أخرى ولو كانت الحرب العالمية. أيام كان السادات يحاكم مراكز القوى اعتمد على ما يسمعه من رفاقه في منظمة الشباب ليعرف ما يحدث لأنصار الزعيم الذي يحبه وتفانى في كتابة التقارير بالتنظيم الطليعي من أجله. في حينه لم يحاول تصفح جريدة ليعرف الأخبار، ولم يهتم بسماع نشرة الأخبار على المقهى ليتعرف على ما يتعلق بالمحاكمات. تفكيره عملي بعيدٌ عن القراءة والكتابة والمتابعة عبر وسائل الإعلام..

فوجئ بالراكب الذي يجلس على الكرسي الذي أمامه يقدم له قدحا من الشاي؛ ويقول له:

- تفضل يا أستاذ!

وبينما ساعي البوفيه يقف في الطرقة منتظرا ما يطلب منه؛ ارتبك سيد وحاول أن يعتذر عن عدم قبول تحية الشاي:

- شكرا.. شكرا.

ولكن الآخر أصر وألح:

- بقيت أمامنا ساعتان. عرفت أنك ستنزل المنيا حين راجع الكمساري التذاكر.

- نعم.. هو كذلك.

قبل التحية، وبدأ التعارف بينه وبين الجيران:

- أنا سيد عبدالله.. مدرس مساعد بكلية التربية. وأردف مع ابتسامة خفيف:

- لم أتسلم العمل بعد. تعيين جديد!

رحب به الجار، وتولى تعريفه بنفسه والآخرين:

- أخوك حسن جابر مدرس بكلية الآداب. وأشار على يساره: الدكتور محسن صبري- زميلي في الكلية، وإلى الجار المقابل: دكتور على إبراهيم: مدرس بكلية الزراعة..

تبادلوا الترحيب. وأخبروه أنه سيكون ضيفهم في الاستراحة حتى صباح الغد، حيث سيقدمونه إلى عميد الكلية ليتسلم عمله.

❖ ❖ ❖

(٥)

حضر الأستاذ الكبير عبده الإسكندراني، معالي رئيس الجامعة السابق، للمشاركة في اجتماعات مجلس الكلية. نظر إلى مقعد العميد- رئيس المجلس- فرأى أستاذا آخر افتتح المجلس باسم الله، ثم توجه إلى العميد السابق بالتحية والتقدير والعرفان على ما بذله طوال فترة عمادته، وتمنى لسيادته إثراء البحث العلمي بالمزيد من البحوث القيمة التي عُرف بها في الأوساط العلمية، ووعد أن يكون أخا للزملاء جميعا، وأن ينزل عند رأيهم، وتعاهد معهم على العمل من أجل مستقبل طيب للعلم والكلية والجامعة.

وقف الدكتور عبد الحليم صالح واستأذن العميد الجديد ليقول كلمة للعميد السابق، فإذا به يلقي قصيدة عصماء تنتقل من مدح السابق إلى اللاحق، مع إشارة إلى معالي رئيس الجامعة الذي كان، وتحية أعضاء المجلس، فلقي استحسانا وتصفيقا عندما انتهى من إنشاده، وانصرف المجلس إلى مناقشة جدول الأعمال.

لاحظ أعضاء المجلس أن الأستاذ الكبير ظل صامتا. لم يشارك بكلمة في المناقشات، لم يقل رأيا في القضايا المطروحة، وهو الذي لا يفوّت موضوعا إلا ويدلي بدلوه فيه.

- أستاذنا الكبير لا يتكلم. خيرا يا صاحب المعالي؟

هكذا قطع الدكتور حسام محمود سير المناقشات ليلفت

الأنظار إلى الرجل الذي كانت الدنيا تهتز لحضوره وانصرافه في الجامعة أو الكلية.

اغتصب الرجل ابتسامة، ليبدو طبيعيا في وسط يعج بالشامتين والمنافقين وأصحاب الهوى كما يتصور.

- أنا بخير يا دكتور، ولكني أصغي للمناقشات، وأستمتع بالحوار الشائق.

ثم أردف فيما يشبه الترفع:

- قضينا العمر في مناقشات كثيرة، وآن للأجيال الجديدة أن تقدم ما عندها.
- أطال الله عمرك يا أستاذنا!
- شكرا يا بني..

كان المجلس «المصغّر»، هو الذي يناقش ويقرر، والمجلس «المصغر» مصطلح أطلقه بعض الخبثاء من الأساتذة على الزملاء الذين يجمعهم القطار قادمين من المدينة الكبيرة؛ فيجلسون في كراسٍ مجتمعة وجها لوجه، ويقررون ماذا يفعلون في القضايا المطروحة على جدول أعمال المجلس الأصلي. وهناك من الأساتذة من سمّاه مجلس «القطار» بقصد السخرية، وقد شاعت هذه التسمية فيما بعد.

نشأ هذا المجلس قبل سنوات من تولي الأستاذ الكبير عبده الإسكندراني رئاسة الجامعة. فقد كان يسكن في المدينة الكبيرة قبل أن يستقر بجوار كليته وجامعته الإقليمية. وكان يفضل السفر

بالسكة الحديدية على السيارة الخاصة، لأنه مريح، ورخيص، خاصة عندما يكون هناك اشتراك سنوي أو نصف سنوي.

كان يجلس على مقعد معين في القطار، يحدده له موظف الحجز بالمحطة. ويلتف حوله المقيمون في المدينة الكبيرة من هيئة التدريس، وخاصة تلاميذه الذين منحهم شهادات الماجستير والدكتوراه، وشارك في تعيين بعضهم بكليته أو كليات أخرى. يحرصون على الحجز بجوار مقعده، ومن لم يتمكن يستأذن في تبادل الكرسي مع أحد الركاب. كانوا يطرحون أمامه كل ما يجري في الكلية من أحداث وأخبار، بدءا من صراعات الفراشين على احتكار تقديم الشاي والقهوة للطلاب والأساتذة، والهيمنة على ترتيبات مناقشة الرسائل العلمية، وعائد الكشف عن نتائج الطلاب في الامتحانات، حتى صراعات أعضاء هيئة التدريس على توزيع المذكرات والمناصب الإدارية والإشراف على طلاب الماجستير والدكتوراه.

كان يرشد تلاميذه إلى الطرق الفعالة لحسم الصراعات لصالحهم ضد خصومهم. لا يهم إن كانت الوسائل مشروعة أو غير مشروعة، وكان يرتب لتحويل الموضوعات المطروحة على جدول الأعمال، إلى الاتجاه الذي يريده المجلس المصغر بذكاء، فهم أبناؤه الذين يوزعون كتبه على طلابهم، ويجمعون له الحصيلة، وفي المقابل يقف إلى جوارهم في الترقيات والأزمات!

في إحدى الجلسات أراد عميد الكلية أن يحقق المساواة بين

الأقسام في عدد الطلاب ليمنع الصراعات الناتجة عن تضخم بعضها وهزال البعض الآخر، مما يترتب عليه توزيع المذكرات بطريقة غير عادلة. الأقسام الضخمة توزع عددا أكبر من المذكرات، أما الأقسام الهزيلة فالتوزيع فيها قليل.

امتدت المناقشات إلى آفاق لم تخطر ببال أحد. كان هناك ثلاثة اتجاهات.الأول مع المساواة وعددهم قليل. والثاني مع عدم المساواة وعددهم أكبر، وهم الذين يتكون منهم المجلس المصغر، والثالث يمثل أصحاب الصوت المنخفض وهم الأغلبية الذين لا يقدرون على المواجهة أو لا يريدون إغضاب أحد، وينتظرون ما تسفر عنه المناقشات.

يحرص أعضاء المجلس المصغّر على الهيمنة على قرار المجلس الكبير، وتحقيق أكبر منفعة من توزيع المذكرات. وعلمهم أستاذهم الكبير أن ينتشروا بين بقية الأعضاء في المجلس عند المناقشات، ويتناوبوا الكلام، مع ملاحظة أن تكون أصواتهم جميعا عالية وزاعقة وقوية، وكأنهم يخطبون في حشد ضخم من الناس، وليس بين عشرين أو ثلاثين شخصا أمامهم مكبرات صوت توصل كلامهم إلى جميع أركان القاعة.

يبدأ أحدهم:

- مع احترامي لرأي الأستاذ الدكتور رئيس المجلس، فإني أرى أن المساواة ظلم كبير للطلاب الذين يرغبون في دراسة تخصص يتفق وميولهم.

ويهبّ آخر:

- أضيف إلى ما قاله زميلي، أن الأقسام المختلفة وضعت قواعد للالتحاق بها، ويجب احترام هذه القواعد.

وينطلق ثالث:

- إننا نظلم الطلاب الذين يدرسون في تخصصات لا تتفق مع رغباتهم لأنهم سيفشلون في دراستهم، ولا يحققون نجاحا يذكر، ولذا أطالب بترك الأمر لرغبات الطلاب!

كان معلوما أن أقسام اللغات الأجنبية وبعض الأقسام الأخرى التي يقبل عليها الطلاب، تتيح لهم بعد التخرج فرص عمل لا تتيحها الدراسة في أقسام أخرى. لذا كان أعضاء هذه الأقسام يضعون شروطا مخففة تتيح للمتوسطين في المستوي أن يلتحقوا بها مع الفائقين. أي إنهم لا يضعون شروطا تحقق الجودة والتفوق. وبذلك يضمنون إقبال عدد كبير من الطلاب، وتوزيع عدد كبير من المذكرات.

على الطرف الآخر يدافع بعضهم عن فكرة المساواة لتحقيق العدالة بين الأقسام. ولكن صوتهم يأتي خافتا وواهنا، مع صمت الأغلبية المترقبة لما تسفر عنه النهاية، وحين يلجأ رئيس المجلس إلى التصويت يفوز المجلس المصغر، وينتصر في إقرار وجهة نظره!

في يوم ما، قبيل اجتماع المجلس، كانت الدكتورة سحر الحلواني في القطار تجلس على طرف المجلس المصغّر، فأطلقت ضحكة عريضة، ووجهت الخطاب للأستاذ الكبير، قائلة:

- ستذبحون من اليوم؟

وتعالت الضحكات على امتداد الكراسي المتجاورة المتقابلة.

قال الدكتور بيومي حنتيرة:

- سنذبح العجل البحيري!

وتعالت الضحكات من أعضاء المجلس المصغّر. كانوا يقصدون أستاذا في قسم الدكتورة سحر. عرف باستقامته وترفعه عن خوض الصراعات التي تجري بين أساتذة القسم حول عدد الساعات التي يسعى الزملاء لتدريسها وتؤمّن لهم توزيع كمية كبيرة من المذكرات، كما كان يبتعد عن الحوارات الجوفاء في حلقات البحث التي يناقش فيها القسم موضوعات الطلاب المتقدمين للحصول على الماجستير والدكتوراه (السيمينار)، فقد كانت المناقشة عبارة عن استعراض لقوة الصوت العالي لدي فرقاء القسم الذين يكوّن كل فريق منهم مجموعة متضامنة لإلغاء الموضوع أو تأييده. الإلغاء يعني حرمان المشرف في المجموعة المستهدفة من الإشراف، والموافقة تمثل انتصارا للمشرف وفريقه.

المجموعات المتصارعة لا تناقش من أجل إثراء البحث العلمي، ولكنها تسعى للهيمنة على مقدرات القسم وتوجيهه بما يحقق منافعها الصغيرة، وتصفية حسابات أصغر بين بعض الأساتذة تسببها الغيرة أو الحسد أو الاستقامة.

العجل البحيري لقب ساخر، ناقم، أطلقه عضو في المجلس المصغّر على الدكتور على صالح الذي قيل إنه سيقدم في الجلسة

الجديدة لمجلس الجامعة مذكرة حول نظام الدراسات العليا في قسمه، وهي تحمل اتهاما ضمنيا بوجود خلل في القسم، وتفتح الباب لوضع ضوابط تحرم المجموعات المتصارعة من تحقيق أهدافها الصغيرة، ولذا أعد المجلس المصغّر، خطة لتجاوز المذكرة، و إبقاء الوضع على ما هو عليه.

جاء طالب إلى الدكتور على صالح، وطلب منه الإشراف للحصول على الماجستير. سأله:

- هل اخترت موضوعا؟

رد الطالب بالنفي. فقال له:

- إذا، اختر موضوعا، وضع عناصر البحث، ثم تعال لنتناقش.

بانت الحيرة على وجه الطالب، ولم يرد. فسأله الدكتور:

- لم ترد علي؟ هل هناك مشكلة؟

تلعثم الطالب قليلا. ثم قال:

- إن زميلي(...)، اختار له الدكتور(...) موضوعا، وكتب له خطته كاملة، وناقشها القسم ووافق عليها.

بوغت الدكتور على صالح، ولم يجد مفرا أن يقول للطالب:

- إذا، اذهب إلى الدكتور(...) ليختار لك موضوعا، ويضع خطته، أما أنا فلا أستطيع!

ذهل الطالب، وانصرف متوجها إلى الدكتور(...)، وحكى له ما دار بينه وبين الدكتور على صالح، وطلب منه الإشراف عليه.

ولم يخيب الدكتور (...) ظن الطالب، فقد قال له:

- لدي موضوع كنت سأشتغل عليه ضمن أبحاثي الخاصة، ولكني سأعطيه لك.

غمر الفرح ملامح الطالب، وكاد يقبل يده، وراح يشكره بكل الكلمات التي وردت على ذهنه في هذه اللحظة.

كان الدكتور على يتابع ما يجري في القسم، ولا يعلق احتراما لنفسه، وكي لا يشتبك مع أصحاب الصوت العالي، فقد تعود على الرضا بنصيبه، دون أن يقصر في أداء واجبه، أو يخالف ضميره، وكان يعتقد أن إرضاء الله هو غايته، وأنه سبحانه يبارك في القليل، ويلطف به في الملمات.

عندما سمع الطالب يتحدث عن زميله الدكتور (...) الذي يضع الموضوع والخطة لطلاب الماجستير والدكتوراه، دون أن يبذل الطالب جهدا في التعرف على شكل الكتب التي يفترض أنه يستقي منها مادته، تأثر كثيرا، وتأثر أكثر عندما عرف أن الدكتور الذي ذكره الطالب ليس وحده، بل هناك غيره يفعلون الشيء نفسه، دون أن يدركوا أن الطالب الذي يتعود على الحصول على المادة العلمية بسهولة، ودون أن يبذل جهدا، يعيش جاهلا في تخصصه، على أحسن الفروض ضعيفا.

ماذا لو لم يذهب إلى المكتبة، ويقلب الكتب، ويتعرف عليها، ويلم بمحتوياتها؟ كيف سيكون في المستقبل مدرسا أو أستاذا في هذا التخصص، وهو لا يدري شيئا عن مضمونه وأبعاده؟

لماذا يرتكب الزميل هذه الجريمة في حق الأجيال القادمة؟

أمن أجل أن يقال:إنه أشرف على رسائل علمية عديدة؟

أو إنه يبغي الحصول على مكافأة الإشراف، وهي زهيدة وبائسة، يحصل على أضعافها شاب يعمل في مؤسسة أو شركة ذات امتيازات مفتوحة؟

أو يحقق شهرة بين طلاب الدراسات العليا، ويصنع منهم عزوة تروج له، وتقف إلى جانبه في مواجهة من يعتقد أنهم خصومه؟

أو إنه كما يقول بعض الخبثاء يفعل ذلك مقابل منافع غير منظورة، يحصل عليها سرا، عندما ينتهي الطالب من بحثه، فيضع في طريقه العقبات ويضطر الطالب للاستجابة لما يريد حتى يناقش ويحصل على الدرجة؟

أيا كان الأمر، فقد أصر الدكتور على صالح أن يتقدم بمذكرة لإصلاح الدراسات العليا، وأصر المجلس المصغر على ذبحه، لكي لا يكون هناك تأثير لغيره على مجريات الأحداث في الكلية مستقبلا.

❖ ❖ ❖

في بداية انعقاد المجلس، وبعد الافتتاح، وتوزيع الابتسامات التقليدية، من جانب الرئيس والأعضاء، كان هناك خبر أعلنه العميد رئيس المجلس في هدوء وثقة وارتياح:

- أبارك للأستاذ الدكتور على صالح تعيينه وكيلا للكلية لشئون الدراسات العليا، وقد تم اختياره بحكم الأقدمية وتوصيات

الجهات المعنية.

- أسقط في يد المجلس المصغر، وتغيرت الخطة التي كانت معدة لذبحه، وقالت الدكتورة سحر:
- هل يسمح لي السيد الرئيس بإطلاق زغرودة تحية للوكيل الجديد؟

ضحك الجميع ، وتابع المجلس أعماله.

❖ ❖ ❖

(٦)

ولدت سحر الحلواني في إحدى قرى الدلتا الواقعة على نهر النيل؛ لأب غني وأم فقيرة. انفصل أبواها مذ كانت طفلة في المهد. تعددت الأقاويل حول أسباب الانفصال، ومن بينها أنه لم يكن طلاقا كما يشاع، بل كان قرارا من الأم حين أخذت ابنتها بليل ومضت إلى غير رجعة، ولم يعرف أحد وقتها إلى أين؟

كان والدها إبراهيم الحلواني ابنا لفلاح يملك عددا محدودا من الأفدنة في القرية والقرى المحاذية، فاحتل مركزا اجتماعيا لا بأس به بين الأعيان، ولكنه لا يشارك في أحداث القرية وصراعات عائلاتها الكبيرة مع أن عائلته كبيرة أيضا، وتحتل ركنا بارزا في جنوبها وشمالها. يؤدي واجب العزاء، ويهنئ في الأفراح، ولا يستهويه منصب مشيخة البلد أو العمودية. يحظى بعلاقة طبيعية مع الأطراف كافة، فهو غير محسوب على أي طرف، وفي الانتخابات لا يذهب إلى صندوق الاقتراع سواء كان الاقتراع لمجلس النواب أو الاتحاد القومي بعد ١٩٥٢، أو العمودية أو مشيخة البلد.

حين تزوج الرجل أنجب إبراهيم وأخا آخر، وثلاث بنات. حاول أن يعلم ابنه الأكبر إبراهيم، فاشترى له البدلة والطربوش والحقيبة الجلدية وأرسله إلى المدينة ليتعلم، ولكنه تعثر، ولم يكن هناك مفر بعد سنوات من الخيبة إلا العودة إلى القرية، ومتابعة

العمل في الأرض الزراعية. أخوه الأصغر لم يكن أفضل حظا منه، فقد حصل على الإعدادية من مدرسة خاصة، وهذه كان لا يعرف الطريق إليها يومئذ إلا الطلبة الفاشلون في المدارس الحكومية، وبعد الإعدادية انتقل إلى إحدى مدارس التعليم الفني، كان مدللا دفعت به المراهقة لمرافقة بعض الساقطات سرّا. كان يعرف ذلك عدد قليل من أصدقائه الحميمين. تعثر في دراسته وقضى سنوات عديدة يرسب ويعيد، واضطر لترك الدراسة دون أن يحصل على الدبلوم المتوسط، ولأنه كان يحظى بتعاطف كبير من جانب أمه بعد وفاة والده؛ فقد عاش على راحته. لم يكن له صبر على العمل في الأرض الزراعية، ولا القيام بأي نشاط يدر عليه دخلا أو ينفع أسرته، وراح يقضي أوقات فراغه هنا وهناك، يزور أقارب أمه وأبيه في القرى المجاورة، أو يذهب إلى أصدقاء الدراسة في بلداتهم القريبة، والغريب أن التجنيد لم يقبله مع أنه كان يجند الشبان جميعا بعد الهزيمة التي سموها نكسة. وفوجئ الناس بموته فجأة، كان موته غامضا فلم يمرض أو يشك من ألم، كانت صحته جيدة جدا، وجاء الموت بغتة ليحصد حياة شاب قوي في زهرة العمر، فأذهل الناس، وبكوا شبابه، وعم الحزن أرجاء القرية وظل الأهالي في حداد عام فترة طويلة، كان خفيف الروح، ودودا، ذا مروءة مع من يعرفه ومن لا يعرفه. أعدّ له أهله سرادقا غير مسبوق، وجاءوا بمشاهير قرّاء القرآن الكريم من الإذاعة، وجمع زملاؤه وأصدقاؤه من شباب القرية مبلغا لنشر نعيه في جريدة يومية.

كانت أخوات إبراهيم البنات قد تزوجن واستقرت بهن

الأحوال، في أسرهن الجديدة، واستطعن حل مشكلة الميراث معه بحكم أنه الشقيق الأكبر المهيمن على الأرض والحيوانات والبيوت والأموال السائلة وغيرها، وذلك بعد تدخل رجال طيبين، أما هو فقد كان يشتري بعائد الميراث كله أرضا جديدة و يسجلها باسمه، وقد تنازلت البنات عن هذا الجانب إيثارا للسلامة، وعدم قطع خيط المودة مع الشقيق الأكبر!

قالت له أمه ذات يوم:

- إنك تظلم أخواتك البنات.

رد عليها بغير مبالاة:

- أنا الذي يقوم على زراعة الأرض، وهن في بيوت أزواجهن لا يدرين شيئا عما أبذله، وأعانيه.

قالت الأم بشيء من الامتعاض:

- الحق أحق أن يتبع، وهذا شرع الله يا بني!

لزم الصمت ومضى.

❖ ❖ ❖

كانت قصة زواجه التي انتهت بالفشل الذريع، حديث القرية. واستمرت لفترة طويلة موضع مناقشة الرجال في أوقات العصاري، على المصاطب أمام البيوت، وعلى رصيف مسجد القرية.

قال أحدهم في جلسة تضم بعض الرجال:

- أما كان لزوجة إبراهيم أن تصبر قليلا؟

أكمل الآخر:

- وكانت طفلتها الرضيعة تفرض عليها أن تتحمل حتى تجد حلا.

ولكن ثالثا قال:

- كيف تصبر، وطباعه لا تطاق؟ ثم إنه لم يكن ينفق عليها!

وأردف:

- إن القرش يخرج من جيبه مثل خلع الضرس!

بدا الاستياء على وجوه الحاضرين بلا استثناء. كانوا يعرفونه جيدا، ويحفظون تصرفاته وعاداته. كان لا يغير ثوبه طوال شهور. لا يشتري صابونة ليغتسل، يذهب إلى النهر ويدعك جسمه بالطين، ثم يغطس عدة مرات، ويخرج ليلبس ثوبه البالي!

قالوا إن حاله سيتغير بعد الزواج، ولكن الفتاة التي اختارها ولم يبذل لها مهرا يذكر، صدمت بحرصه وتقتيره، فضلا عن طباعه الحادة، فأمضت نحو ثلاث سنوات تعاني في بيته، ولولا أن الخبز والجبن والبيض والألبان متوفرة في البيت الريفي بحكم العمل في الزراعة ووجود الحيوانات والطيور التي تتم المقايضة بمنتجاتها أو بها لشراء الزيت والسكر وكيروسين الإضاءة وتشغيل الموقد، وبعض الخضراوات التي لا توجد في الحقل وتلزم للطبخ أو المائدة لكانت الأمور أشد صعوبة..

لم يكن ينفق مليما من ثمن القطن أو الحبوب التي تأتي من بيع المحاصيل. كان يدخرها لشراء بعض القراريط من هنا أوهناك، وربما يكون هناك من يريد أن يبيع فدانا أو أكثر فيجد في إبراهيم

الحلواني مشتريا منافسا لغيره سواء في السعر أو الدفع الفوري. كانت الأرض هي شهوته التي لا تنطفئ. ومن أجل إشباع هذه الشهوة عاش مثل أفقر الفقراء شكلا ومضمونا، زد على ذلك تعامله المتشدد مع الفلاحين وهو يتقاسم معهم الحبوب أو النقود. لم يكن يؤجر الأرض للفلاحين، كان يسمح لهم بالمشاركة بشروطه. وشروطه فيها غبن كبير، ولكنهم كانوا يقبلون لأن البديل، هو الجلوس بجوار الحائط، وخلو الدار من القمح واللبن، وهما عماد المعيشة في البيت الريفي..

روى أحدهم شيئا عن بخله، فقال:

- رأيته ذات يوم يترك جلستنا على شاطئ النهر، وينتحي بعيدا عنا، ويجلس في عشة صغيرة متربعا وحيدا على الأرض. كان ينحني على حجره، ويداه تعملان، تسللت إليه دون أن يحس بي. نظرت فوجدته يقسم سيجارة ماكينة، ويضع نصفها في جيب الصديري، ويفرط نصفها الأخر في ورقة رقيقة من ورق السجائر اللف (البافرة)، ويبرمها، ثم راح يشعلها، ويدخن منتشيا!

قال أحد الجالسين:

- ليته لم يشتر السيجارة ولم يدخن، فيريح صدره، ويريح جيبه!

ضحك ثالث، وقال:

- إنه لا يشتري غير سيجارة واحدة، ولا يستطيع أن يدخنها أمام الناس، حتى لا يحرجه أحد حين يعزم عليه فيتقبلها منه،

ويجلس هو يشتهي نَفَسا.

قال رجل كبير السن، يبدو عليه الوقار والتدين:

- السجائر مكروهة، ورائحتها لا تطاق. والأولى عدم التدخين!

❖ ❖ ❖

لم يسع إبراهيم إلى الزواج ثانية، ولم يحاول أن يبحث عن ابنته وأمها. عاش سنوات طوالا بمفرده يعتمد على خدمة أمه وأخواته اللاتي يأتين إلى زيارتها من وقت لآخر، كان شغله الشاغل البحث عن الأرض التي يشتريها، وتكاثر الفدادين التي يملكها، وانضمامه إلى كبار الملاّك بالقرية، والمنطقة بأسرها، وهو ما حدث.

حاول أهل القرية يوما أن يقنعوه بالتنازل عن فدان لبناء وحدة صحية تخدمهم؛ ولكنه لم يستجب. رد بطريقة ملتوية وقال: «إن شاء الله عندما تقرر الحكومة». قالوا له: إن الحكومة أدرجت الموضوع في خطتها. رد عليهم: عند التنفيذ. ولما يئسوا من استجابته؛ ذهبوا إلى غيره وكان منهم رجل طيب، فتبرع لهم بنصف فدان، وانضم إليه آخر متبرعا بربع فدان، وعلقوا أملا على ثالث ليتبرع ببضعة قراريط.

حين اكتمل بناء الوحدة الصحية التي يطلقون عليها اسم المستشفى، دفع الحنق بعض الأهالي إلى الذهاب لطبيب الوحدة، وطلبوا منه فيما يشبه القرار ألا يعالج إبراهيم الحلواني حين يحضر إلى الوحدة طلبا للعلاج، وألا يذهب إلى بيته حين يستدعى للكشف عليه.

تبسم الطبيب وخاطبهم هادئا:

- اجلسوا أولا لتشربوا قهوة.

تراجع انفعالهم ، وشكروه على تحيته، وقال أحدهم:

- لم نأت لشرب القهوة. جئنا نحمل رسالة للتنفيذ.

تمالك الطبيب نفسه، وسألهم:

- لماذا؟

أجاب أكبرهم:

- إنه- يقصد إبراهيم- لا يحب الخير. وقد رجوناه أن يتبرع بقطعة الأرض اللازمة لبناء المستشفى، ولكنه رفض، وتبرع من يملكون أرضا أقل منه!

قال الطبيب:

- حسنا. هل التبرع إجباري أم اختياري؟

سكتوا جميعا، لبعض الوقت، ورد كبيرهم:

- التبرع اختياري، ولكنه الرجل الذي يملك أكثر من الآخرين.

ضحك الطبيب ضحكة خفيفة، وقال:

- المسألة اختيارية إذا. ومن يحب الخير هو الذي يتبرع ولو كان فقيرا. أما وظيفتي فهي طبيب يعالج الناس جميعا حتى خصومه، وأعداء الوطن إذا كانوا في حاجة إلى العلاج. والطب مهنة إنسانية، يقوم بها الطبيب لكل مريض أو جريح.

ثم تنهد، والتفت إليهم مضيفا:

- يجب أن تحمدوا الله أن في القرية ناسا طيبين، ومن أهل الخير، ولم يترددوا في تقديم الأرض اللازمة للبناء، وقد تم البناء بفضل الله، وأطلب منكم أن تدعوا لعم إبراهيم أن يرقق الله قلبه، وأن يسارع إلى الخيرات. وسكت لحظة، وقال:
- هل يمكن أن نشرب القهوة الآن؟

تبسم بعضهم ، ووافقوا على رغبة الطبيب.

❖ ❖ ❖

كانت مجموعة من الأهالي يجلسون على مصطبة في مدخل القرية؛ فشاهدوا سيارة أجرة تتوقف، وتهبط منها فتاة جميلة ترتدي ملابس أهل البندر مما يشير إلى أنها ليست من القرية. شدت الفتاة أبصارهم، وراحوا يركزون عليها، فلم يتعرف عليها أحد.

تحركت الفتاة نحو الجمع الجالس على المصطبة. وألقت عليهم السلام. رحبوا بها، فسألتهم عن منزل إبراهيم الحلواني. أخذتهم الدهشة لأن أحدا يسأل عن إبراهيم، فعلاقاته تكاد تكون مقطوعة مع أهل القرية، فكيف يسأل عنه من هم خارجها؟

نهض أحدهم ورافق الفتاة إلى المنزل، وتركها بعد أن فُتح الباب، وعاد أدراجه.

❖ ❖ ❖

(٧)

كان خبر تعيين الدكتور على صالح، أو العجل البحيري كما يسميه أعضاء المجلس المصغر أو مجلس القطار؛ وكيلا للكلية صادما لهم. كانوا يتصورون أنهم سيحسمون أمره بالضربة القاضية في أثناء المناقشات، ولكنهم فوجئوا به يرتقي منصبا تنفيذيا يمكن لو تخلى عن ضميره أن يسبب لهم متاعب غير هينة. ويحرمهم من بعض المكاسب المادية.

تغيّر برنامج المجلس المصغر. صار ذبح العجل البحيري مؤجلا من خلال الإشارات والهمسات المتبادلة بين الأعضاء. ولذا مرّ اقتراح الدكتور على صالح عن الدراسات العليا وتمت الموافقة عليه بالإجماع، مع أنه سيكبح حركة بعض الأعضاء في الإشراف الصوري على الرسائل العلمية ويعيد الاعتبار لمفهوم البحث العلمي.. كانت الموافقة نوعا من التقاط الأنفاس للمواجهة المنتظرة التي لابد آتية، ومعرفة رأي الأستاذ الكبير عبده الإسكندراني، وخطته لذبح العجل البحيري.

بعد انتهاء الاجتماع تقدمت سحر من الدكتور على صالح، وقالت في صوت أنثوي يتصنّع الدلال:

- ألف مبارك يا د كتور. أنت تستحق الوكالة وأكبر منها.

كانت التهنئة المباغتة للرجل مربكة. إنه يتوتر حين تجمعه

الظروف بامرأة لا علاقة له بها. رد عليها باقتضاب:

- شكرا.

- فرحتُ كثيرا. سيكون لدينا وكيلٌ يساعد في حل المشكلات!

لزم الصمت، ولم يعقب.

راحت تحثّه على الكلام:

- الدراسات العليا تحتاج رجلا مثلك.

- شكرا.

شعرتْ بشيء من الضآلة لأن الرجل لا يعطيها الاهتمام الذي تراه حين تتحدث إلى غيره. استأذنته، ولحقت بالأستاذ الكبير وهو في طريقه إلى مكتب العميد:

- يبدو العجل البحيري مستعصيا على الذبح!

نظر إليها نظرة ذات معنى. وافترّ ثغره عن ابتسامة باهتة. وقال بصوت خافت:

- لا تستعجلي.

فضحكت ضحكة الفاهم لمغزى الكلام.

كان الدكتور عبده الإسكندراني مهموما، لأمر لم يتبيّنه رفاق المجلس المصغر. لم يبحْ لأحد في الصباح بالخبر الذي تلقاه من أحد أصدقائه في وقت متأخر من ليلة الأمس.

- آلو..

- آلو..

- معذرة يا أستاذنا لإزعاجكم في هذه الساعة.
- خير!
- هناك خبر مؤسف، لم أستطع الانتظار إلى الصباح لأبلغكم به..

ذهب عقله مذاهب شتى، وأفزعه كلام المتحدث، فلم يعلق منتظرا أن يوضح له طبيعة الخبر:

- لقد تم تغيير لجان الترقيات بضغط الوزير، واللجان الجديدة خلت من الأعضاء القدامى.

هدأ قليلا، وحاول أن يستوعب الصدمة، ولكن المتحدث زاد الأمر وضوحا:

- لقد وضعوا نظاما جديدا للترقيات لا يسمح للمعارين بالتقدم للترقية إلا بشروط، ولا يمر منه من يسمونهم بالمتطرفين!

بدأ يستوعب الأمر. عرف أن تيار الوزير انتصر، وفهم أن التنظيم الطليعي ما زال متماسكا، وأنه يملك نفوذا قويا لم يتأثر بضربة السادات التي سميت محاكمة مراكز القوى عام ١٩٧١.. وخيمت على ملامحه علامات الهزيمة والانكسار، مع أن هذه اللجان في رأيه لا تمثل تميزا أو مكسبا، بل هي عبء على من يأخذها بجدية، وعائدها ضئيل، ولكنها كما قال لنفسه: «كانت فرصة لتوسيع النفوذ ومقابلة الصحاب، ومعرفة أخبار المجتمع الجامعي»..

تذكر أنه ترك محدثه على الجانب الآخر من الهاتف دون أن يرد أو ينهي المكالمة:

- لا عليك يا بني. المسألة بسيطة.
- أرجو ألا تتأثر أستاذنا، فالأمور إلى تغيير نحو الأحسن إن شاء الله.
- إن شاء الله.
- تصبح على خير.
- وأنت من أهله.

ظل الأستاذ الكبير يقظا. أطفأ النور وحاول أن ينام، ولكن النوم جفاه. كثيرا ما كتب التقارير التي تنقل المدرس إلى أستاذ مساعد، والأستاذ المساعد إلى أستاذ، وكثيرا ما تدفقت الهدايا قبل الترقية وبعدها. وكان هناك رد للجميل أكبر من الهدايا يتمثل في توزيع كتب معاليه على الطلاب من جانب المُرقّين، وتزداد القيمة إذا كان عدد الطلاب كبيرا. هناك من لا يحفل بتوزيع الكتب ويكتفي بالهدية الثمينة قبل الترقي، ولكنه يظل في دائرة الولاء وتحت سطوة النفوذ والاستجابة لما يطلب منه.

كان ذهن الرجل يعمل ولا يتوقف عن العمل؛ مع أنه يتابع الحركة من حوله، ويسلم على هذا ، ويرد على ذاك.

كيف سيرد على هذا القرار؟ هل سيتضامن معه زملاؤه في اللجنة أو يخافون أن يضعهم الوزير في دماغه، ولذلك تبعاته بين التيار الآخر؟ إنهم بلا ريب متماسكون للغاية، وينقلون إليه كل ما يجري وفقا لمنهج التنظيم. وهو عادة لا يظهر في الصورة رسميا، ولكنه يوحي لأتباعه في المجلس الأعلى بإثارة

الموضوعات والتصديق عليها للتنفيذ، وكأنها نابعة من اتجاه عام بين الأساتذة.

ماذا يعني حرمان المعارين من التقدم للترقيات إلا بعد عودتهم إلى البلاد أو كلياتهم؟ هل هو انتقام من قوم يعملون خارج جامعاتهم ويخدمون الوطن بما يحولونه من عملات صعبة جمعوها بكدهم وعرقهم؟

ثم من هم المتطرفون الذين لا يريدون ترقيتهم؟ هل هم المتطرفون اليساريون؟ إن السلطة تعتمد عليهم اعتمادا شبه كلي في الصحافة والإعلام والثقافة والإدارات المهمة بوصفهم أهل الثقة والولاء. إذا هم يقصدون المعارضين لنظام القمع والاستبداد والظلم الاجتماعي. ويريدون تصفية الجامعة منهم، حتى لا يؤثروا على الطلاب. كان الوزير يسرّ في أذن بعضهم أنه يريد أن يضع قانونا، يفصل بموجبه المدرس الذي لا يرقي إلى أستاذ مساعد في خلال ثماني سنوات، والأستاذ المساعد الذي لا يرقى إلى درجة أستاذ في خلال ست سنوات. ويبدو أن فرصة إغلاق باب التقديم إلى الترقية بالنسبة للمعارين خطوة مهمة في طريق عملية الفصل والتخلص من هؤلاء، طيب.. كيف سيعرفون المتطرف من غير المتطرف؟ بسيطة! الأجهزة الأمنية لديها ملف مفتوح لكل أستاذ من يوم ولادته؛ حتى يوم رحيله!

عزم أن يتصل بزملائه من أعضاء اللجنة الذين تم استبعادهم، ليناقش معهم الأمر، ويحاول أن يثير الأمر في الصحف تحت

دعوى أن القانون مجحف في طبيعته وشروطه، وأنه لا يحقق المساواة بين هيئة المتقدمين للترقية، ويطرح سؤالا أساسيا: ما ذنب طالب الترقية المعار ليحرم من التقدم للترقية طوال فترة إعارته، وخاصة إذا طالت؟

سيوعز إلى تلاميذه في الخارج كي يمطروا الجهات المسئولة في الجامعات وخارجها وخاصة الوزير بالمذكرات والشكاوى والتظلمات، والتعبير عن المشكلة في الصحف وأجهزة الإعلام ، بالمقالات، والحوارات، وغيرها.. ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

تشكيل رأي عام، ونقل المشكلة من الوضع المهني الخاص إلى الوضع القومي العام، مسألة مهمة لهزيمة الوزير وتياره المفتري..

ما زال ذهن الأستاذ الكبير يعمل، فهذه أول ضربة يتلقاها، بعد الخروج من منصب رئيس الجامعة. وهو المنصب الذي كان يرنو إليه بانبهار وشوق؛ العمداء والأساتذة، والمسئولون خارج الجامعة بدءا من المحافظ حتى أصغر رئيس قرية. إنه منصب وزير يصدر به قرار من رئيس الدولة، وله مراسيم وقواعد، وصاحبه يركب سيارة رقم ١ محافظة تمييزا له عن كل المسئولين في المحافظة..

استيقظ ذهن الأستاذ الكبير على صوت يعرفه جيدا:

- أهلا بأستاذنا الكبير. محظوظ لمقابلتكم اليوم.
- مرحبا.

ونظر فوجد شخصا يذكر ملامحه، ولكنه لا يذكر اسمه..

تطوع الدكتور فتحي المنوفي بالتعريف:

- الدكتور جبران صبري؛ فرح جدا عندما علم بوجودكم اليوم. لقد انتهت إعارته بعد سنوات ووصل منذ أيام. ويستعد للترقية إلى درجة الأستاذية.
- بالتوفيق إن شاء الله.
- سعيد بلقائك استاذنا.
- نحن أسعد.

مضى الرجل في موكب المغادرين لقاعة الاجتماع متوجها كالعادة إلى مكتب العميد. هناك يجلس الأساتذة بعد الاجتماع يتناولون المشروبات الساخنة أو الباردة، ويتناولون القضايا الخاصة التي تهم كلٌ منهم. وبطبيعة الحال يعرض بعضهم على الأستاذ الكبير ما يشغله من أمور فيسهم معاليه بإبداء الرأي فيها إذا كانت علمية، أو يعد بحلها إذا كانت شخصية، والقوم يقرون بدوره وقدرته على مساعدتهم، وخاصة من يدينون له بالولاء.

كان الدكتور علي صالح هو نجم اليوم بلا ريب، مذ جرى الحديث عن ذبحه في القطار بوصفه العجل البحيري، إلى المفاجأة في الاجتماع بتعيينه على غير توقع من المهتمين بالأمر، إلى الحديث الدائر بعد انتهاء المجلس عن إقامة حفل استقبال بمناسبة توليه المنصب الجديد. العميد الجديد لم يفكر أحد في الاحتفاء به، فقد كان من ينافسونه على المنصب غير راضين عن تعيينه. فخرجوا من السباق جرحي يجرون أذيال الخيبة والانكسار. كل منهم كان يطمح بالوصول إلى الكرسي ولا يريد لغريمه الفوز،

وهذا أمر معتاد في التنافس الذي يتحول إلى صراع تحسمه عناصر لا علاقة لها بالعمل الأكاديمي فتبقى في النفوس جروح لا تندمل سريعا.

والدكتور على صالح صورة للفلاح الطيب الذي لا يعرف المكر أو الخبث الذي يتسم به من يفكرون في خطف المناصب أو الأضواء من غيرهم، أو يخططون لإزاحة الغير أو إيذائهم.. يمضي على سجيته، ويعتقد أن الناس جميعا طيبون، ولم يعرف عنه أنه أساء إلى زميل أو اعتدى على أحد، أو جرح إحساسه، بل إنه كان أقرب إلى تحمّل ما يعد استهانة أو سخرية أو سفاهة. كان شعاره: ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم. وقد تربى في أسرة طيبة تخاف الله، ويحترمها الناس. لا تعتدي ولا تؤذي ولا تحرض. يسارعون إلى الخيرات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

وإخلاص الدكتور على صالح للعلم والقراءة والبحث معروف مذ كان طالبا، وهو ما كان مثار حنق زملاء الفهلوة من الطلاب والأساتذة، الذين لا يبذلون جهدا علميا أو نشاطا فكريا، ويعتمدون على الشطارة في العلاقات العامة أو غيرها مما يحقق لهم مرادهم.

كان زملاؤه الطلاب يشاهدونه وهو يصلي، فيتضاحكون، ويقولون لبعضهم بسخرية: «إن الصلاة تجعله ينجح بتقدير عال دائما». يبتسم لهم: «إذا صلّوا واحصلوا على التقدير العالي»..

وكانت مفاجأة تعيينه وكيلا مثيرة عند كثيرين، وخاصة سحر الحلواني. فقد انتابها شعور غريب إزاء هذا الرجل الذي كانت تتمني أن تشاهد منذ الصباح طريقة ذبحه بمعرفة المجلس المصغر أو مجلس القطار، و إذا بها تراه موضع تقدير و إعزاز.

وتساءلت فيما بينها و بين نفسها:

«لماذا لا أحصل عليه؟»

إنه فلاح يذكرها بأبيها، وجدتها وعماتها.. ولكنه مختلف في الفكر والسلوك.

ولكن كيف تحصل عليه وهو متزوج ، وله أولاد؟

كيف؟

❖ ❖ ❖

(٨)

فُتح الباب الخشبي العريض الذي يبدو عليه القدم مع تآكل حوافه، وغطى الصدأ الحلقة المثبتة بمفصّلة في الوسط، وتحتها قطعة بارزة مدوّرة من الحديد تطرق عليها الحلقة فتحدث صوتا ويسمع من بالداخل، إشارة إلى وجود طارق يطلب أهل البيت.

أطلت السيدة العجوز من فتحة الباب، وقع بصرها الكليل على الفتاة بنت البندر التي تقف أمامها، ينسدل شعرها الفاحم الطويل على جانبي وجهها، وعلى ظهرها. تأملتها العجوز..

- أنا سحر!
- أهلا وسهلا. سحر من؟
- سحر الحلواني.

بوغتت العجوز واهتز داخلها. دار رأسها بماض بعيد. أتكون هذه.. هذه.. لم تدر المرأة ماذا تفعل أو تقول! لقد ذهبت رضيعة منذ زمن بعيد، حتى طواها النسيان مع أمها. هل هي حقا حفيدتها؟ من يؤكد لها ذلك؟ أبوها لم يعثر عليها أو لم يفكر في البحث عنها أصلا. صحيح أنه سأل بعض أقارب أمها الذين أجابوه أنهم لا يعرفون عنها شيئا، كان هذا السؤال تأدية لواجب ثقيل، نفض يديه منه. هل كانت غريزة الأبوة حاضرة في تكوينه؟ الأرجح أنه كان معنيا بتنمية مساحات الطين التي يملكها. يريد أن تكون

فدادين القرية كلها في حيازته. هذا هو الهدف أو هو الغريزة الحقيقية لديه. لا تعنيه المرأة ولا الأبوة ولا الطعام ولا اللباس ولا المتع الدنيوية التي يسعى إليها الناس. الأرض هي كل ذلك. من أجلها يضحي، ومن أجلها يخرج القرش الذي لا يتحرك من مخبئه من ساعة الحصول عليه.

قالت الفتاة للعجوز:

- أريد أبي!

حاولت العجوز أن تتماسك. هناك شيء يهتز بداخلها، وواقع يجعلها في شك، ويشعرها بالعجز عن التجاوب مع طلب الفتاة.

- أبوك من؟
- أبي إبراهيم الحلواني.
- هل تعرفينه؟
- لا أعرفه، ولكن أمي حدثتني عنه.
- أين أمك، ولماذا لم تأت معك.
- أمي ماتت!

لم تجد العجوز بدا من أن ترحب بها. وتدخل معها إلى المندرة (حجرة الضيافة)، وهي غرفة كبيرة بها مصاطب مستطيلة مفروشة بالحصير، تصلح للجلوس والنوم، محاذية للجدران في البيت الطيني القديم الذي يضم عددا من الغرف الواسعة، وحظيرة للحيوانات مسقوفة بفروع الشجر والقش، وسلما من الطوب اللبن

يقود إلى السطح، حيث توجد غرفتان صغيرتان، إحداهما للألبان، والأخرى للخزين، وتتناثر أمامها صوامع تخزين القمح الطينية، بالإضافة إلى عشش الدجاج والطيور الأخرى.

قالت العجوز للفتاة:

- سأجهز لك طعاما. لابد أنك آتية من مكان بعيد.

ردت الفتاة:

- أنا قادمة من الإسكندرية، ولست جائعة.

- لابد من شيء تأكلينه يا ابنتي. فالمشوار طويل.

كانت العجوز تتأمل الفتاة وملامحها، وتحاول أن تجد شبها بينها وبين ابنها، أو بناتها، ولكن بصرها الكليل كان يعجزها عن الرؤية الجيدة، فانصرفت لتعد للفتاة طعامها..

دخلت إحدى بنات العجوز قادمة من بيت زوجها القريب، ولمحت الفتاة، ورأت ملامح أخيها على وجهها، فشعرت بشيء من الانجذاب إليها، وكانت أمها قد دخلت بالطعام. قالت الأم لابنتها:

- العروس تقول إن اسمها سحر الحلواني، وإنها ابنة إبراهيم.

قالت الابنة:

- ما شاء الله! فيها ملامحه ووجهه.

كانت هذه الجملة عن ملامح الفتاة رسالة طمأنة للأم، وبدأ الشعور الغريزي بالتعاطف يتدفق نحو الحفيدة التي لم ترها إلا من فترة قليلة. فاندفعت نحوها تعانقها وتقبلها، وحذت العمة حذوها،

وراحت الفتاة تحكي قصتها، والأم والعمة تستمعان وتتأثران بما جرى للرضيعة التي كبرت، والأم التي رحلت.

- عشتما وحدكما؟

كان سؤال العمّة عن حياة الأم وابنتها. أجابت سحر:

- كنا نعيش عند إحدى قريبات أمي. كانت تسكن بمفردها بعد أن تزوج أبناؤها وبناتها. وانتقلوا إلى مساكن خاصة بهم في أماكن متفرقة من الإسكندرية، وكانوا يزورونها من حين لآخر.

قالت الجدة:

- ومن كان ينفق عليكما؟

- عندما وعيت بالدنيا كانت أمي تعمل. تتركني لخالتها كما كانت تناديها، ثم تعود آخر النهار أو مع الصباح، وتحمل معها ما نحتاجه من طعام وأغراض أخرى.

سألتها عمتها، وقد زرع ما قالته الفتاة عن عودة أمها في الصباح وسواسا بداخلها:

- ماذا كانت تعمل؟

ردت الفتاة بتلقائية:

- كانت تعمل في البيوت، واختارها طبيب كبير طيب، أشفق على حالها لتعمل في مستشفى خاص مع مجموعة التمريض وخدمة المستشفى، فكانت تعمل بنظام الوردية، في النهار أو الليل.

أبدت العمة نوعا من التأثر، واستأذنت من الجدة لتبلغ شقيقتيها بخبر وصول بنت شقيقهن، ولم يمض وقت طويل حتى جاءت الشقيقتان، وبدا الفرح على وجهيهما.

أخذت كل منهما تتملى الفتاة وجها وعينين، أنفا وشفتين، شعرا وأذنين، وتجد كل واحدة في الفتاة ما ينسبها إلى إبراهيم وإليهم. نجحت الشقيقات الثلاث في إثبات النسب بعد كشف الهيئة الذي قمن به، وكأنه تحليل الدي إن إيه. امتلأ داخلهن بالسعادة، لأن شقيقهن له نسل سيبقى، وإن كان في أنثى!

راحت الفتاة تتعرف على عماتها وجدتها، وهن يتعرفن عليها، وتحكي كل واحدها ذكرياتها عن أمها وأبيها، وكيف تعارفا وتزوجا، وانفصلا..

شعرت الفتاة لأول مرة بطعم الأسرة. أحست ببهجة الوجود داخل عائلة ترتبط بها، ووطن صغير تنتمي إليه، وإن كان بيتا طينيا في قرية صغيرة في أعماق الريف.. ما أجمل أن يكون الإنسان مربوطا بجذع شجرة قوية يسقيه الطمأنينة والأمل، ويمنحه الصبر والثبات في رحلة الحياة القلقة. عرفت أن عائلة أبيها ممتدة شمال القرية وجنوبها، وأنها تشكل عزوة يفاخر بها أهل الريف عادة. ولكنها كانت تترقب خبرا عن أبيها. أين هو؟ هل ستراه؟ ماذا سيقول لها؟ هل سيعترف بها؟ هل سيتعامل معها مثل الجدة والعمات؟ إنها لا تعرف شيئا عنه، لا شكله ولا رسمه، وإن كانت أمها قد تحدثت عنه وعن طبيعته، وأخلاقه، وسلوكه.

إنه أبوها على كل حال ولعل الزمن غيّره. كان الوقت عصرا، وبدا أنها تأخرت عن موعد العودة الذي وضعته لنفسها:

- أين أبي؟

سألت ببراءة.

قالت إحدى عماتها:

- سيأتي. إنه يمر على الحقول، ويحضر بعد صلاة المغرب. لا تقلقي.

قالت فيما يشبه الحيرة:

- إني أريد العودة اليوم إلى الإسكندرية.

قالت الجدة بحزم:

- لا يمكن أن تعودي الليلة يا بنتي. الصباح رباح.

ثم أردفت:

- وقد يذهب أبوك معك ليتعرف على السيدة التي تعيشين معها، ويشكرها.

- إنها ستقلق من أجلي. لن تنام الليل.

قالت سحر.

ولكن عمتها أقنعتها، أن المسألة بسيطة:

- ألم تخبريها أنك قادمة إلى بيت أبيك؟

- نعم.

- هي ستطمئن أنك بين أهلك.

استسلمت سحر، وارتدت ثوبا ريفيا لأول مرة، وشاركت عماتها في متابعة ذبح بعض الطيور، وتجهيز العشاء، الوجبة الرئيسية في القرى...

❖ ❖ ❖

في المساء كانت الدار تمتلئ بالأحفاد وآبائهم وأمهاتهم، والجدة العجوز تبدو سعيدة بهذا الحشد الذي لا يحدث إلا في المناسبات والمواسم. ملأ الأطفال البيت أصواتا وصياحا وحركة يفتقدها على مدار أسابيع أو شهور. بل إن بكاء بعض الأطفال كان يشعر الجدة بوجود روح مفقودة، وحياة غائبة. إبراهيم في عالمه البعيد، في برنامجه اليومي يبتعد عن البيت طول النهار بحثا عن المال والأرض الجديدة ومتابعة الفلاحين، ويسهر بعد تناول العشاء مع أهل القرية على مصطبة هنا أو هناك، يتابع ما يثرثرون به من أخبار وأقوال، ويحرص على سماع أخبار المدينين، من سيبيع أرضه، ومن سيرهنها، ومن سيتركها بورا،من أجل تقسيمها،أرض مبان تدر عائدا كبيرا.. ثم يعود إلى الدار لينام وحيدا على مصطبة من مصاطب المندرة..

قالت أمه وهو يدخل الدار بلهجة مغردة:

- ابنتك يا إبراهيم.. سحر يا إبراهيم!

أدهشه التجمع الكبير في الدار. ظن أن هناك مناسبة لا يعلم عنها. دارت عيناه في المندرة. رأي وجوه شقيقاته، والتفت إلى الأطفال الذين صنعوا شبه حلقة حوله، وراحوا يتصايحون:

«خالي وصل.. خالي وصل!»..

استكثر عددهم. لابد أن آباءهم وأمهاتهم يضيقون بهم، «هكذا قال لنفسه». أما هو فيعيش بلا ضجيج. بعيدا عن صياح الأطفال وصراخهم وبكائهم. انتبه إلى ما قالته أمه، فنظر إليها مشدوها، متسائلا.

- من سحر؟ من ابنتي؟

قدمتها أمه إليه والسعادة تقطر على جبينها:

- أبوك يا سحر..

بدا جامد العواطف، بارد القلب، لم يقبل عليها إقبال الأب المشتاق لابنه الغائب، ولم يبد فرحا أو بهجة بلقاء وحيدته التي لا يعرف شكلها مذ كانت رضيعة. كل ما فعله أو نطق به:

- أهلا وسهلا!

قالت الفتاة:

- كنت أتمنى أن أكون معك يا أبي مذ وعيت..

لم يرد، ولم يعلق.. ظل جامدا، يتأمل الفتاة، وينقل بصره بينها وبين أمه، التي قطعت هذا الصمت:

- نأكل أولا، ونتحدث. هيا يا أولاد..

التف الأطفال وأمهاتهم وآبائهم حول الصواني في وسط الدار. خصصت الجدة صينية لها وللضيفة وأبيها، وراحوا يتحدثون فيما مضى..

عرف إبراهيم قصة ابنته، وكفاح أمها في تعليمها الذي واصلته بعد رحيلها حتى حصلت على الليسانس والماجستير، وعملها في مدرسة خاصة لتواجه مطالب الحياة، ولكنه لم يبد تعاطفا أبويا، أو إنسانيا. استقبل الأمر كأنه عبء جديد لم يتوقعه. وأبدى نوعا من الرفض حين طلبت أمه أن يسافر معها إلى الإسكندرية، ويقوم بتوصيلها إلى مكان إقامتها.. ولولا إلحاح أمه، وإصرار شقيقته الكبرى على السفر معه ما وافق على مرافقة الفتاة في عودتها. شعر أنه سيتحمل أجرة وتكاليف ليست واجبة عليه، ولكن الشقيقة أوضحت أنها ستتحمل ثمن التذاكر في الذهاب والعودة.

استسلم، وفي الصباح كان يرتدي ثوبا قديما حال لونه، فوق صديري مخطط بهتت ألوانه، وحذاء أجرب مثقوبا في بعض جوانبه، ويركب القطار مع سحر وعمتها التي لاحظت أنه لم يعطف عليها بشيء من المال أو الهدايا، بينما جهزت لها جدتها سلة كبيرة، وضعت فيها جبنا وسمنا وبيضا، ودجاجات مذبوحة مجهزة للطبخ، وخبزا وأقراصا للإفطار، وغير ذلك من أطعمة ريفية، ثم جاءت بأحد خواتمها الذي تحتفظ به منذ زمان بعيد، وأهدته إليها، ووضعت في يدها مبلغا، تستعين به في شراء بعض ما تحتاجه. كانت الفتاة تمانع، وتقول لها:

- مستورة يا جدتي. الحمد لله لا أحتاج إلى شيء.

أصرت الجدة، وتقبلت الفتاة، وبدت سعيدة بما فعلته جدتها، وأحضرت عمتها قطعة قماش فخمة كانت تحتفظ بها لإحدى

بناتها عندما تكبر، ولكنها رأت أن تهديها لابنة أخيها، التي لم تفد منه شيئا، وعاشت حياة صعبة في وجوده.

وعدت سحر جدتها وعماتها أن تزور دار أبيها من حين لآخر، وطلبت منهن الدعاء لها بأن توفق في الحصول على الدكتوراه.

كانت صافرة القطار تعلن تحركه نحو الإسكندرية، وعجلاته تصنع صوتا مميزا وهي تحتك بالقضبان، وسحر تقف في شباك القطار تولى وجهها نحو القرية وتفكر في أبيها الذي يشبه لوح الثلج، وتترحم على أمها!

❖ ❖ ❖

(٩)

صار سيد عبد الله معروفا بين هيئة التدريس، وعلى مدى سنوات أنشأ شبكة علاقات واسعة في الكلية، توطدت مع بعض من يشبهونه في الفكر والسلوك، واستطاع عن طريق أستاذه عبده الإسكندراني أن ينجز رسالة الدكتوراه، ويستعد لمناقشتها، ويرى المستقبل ضاحكا في عينيه.

كان يعيش في استراحة الجامعة مع زملائه المغتربين سعيدا مسرورا، فالمكان ملائم بالنسبة له. والمدينة ليست مزدحمة خانقة مثل مدن أخرى، وتبدو في الليل هادئة وادعة جميلة. آثار الحياة الريفية البسيطة تنعكس على سكانها الأصليين، وجد سيد فرصة السهر مواتية في المدينة كلما أراد، وقد تعرف على قاعها وما فيه من مواضع تشعل رغباته وتشبع مزاجه الخاص.

شاهد أكثر من موضع في قلب المدينة وأطرافها. مواضع لا تعمل ولا تنشط إلا بعد منتصف الليل، كان مع زملائه الذين يقيمون معه يذهبون إليها ويستمتعون بالطعام والشراب، وينطلقون على هواهم، ويعبون من الشراب الرخيص الذي يحل عقدة ألسنتهم فيقولون ما لا يقال!

اكتسب سيد في هذه السهرات الملوّنة تأكيد لقبه القديم «سيد كبّاية»، ووجد في هذا لذة ما بعدها لذة حين ينادى به. كانوا

يعدّونه ملك الشرب. يشرب كثيرا ويستمر في الشرب إلى وقت طويل صاحي العقل دون أن يفقد وعيه. وبعد أن يتناول كميات أكبر، يشعر أن مخّه أخذ يتفكك، ويبدأ لسانه ينطلق فيقول في زملائه ورؤسائه وأقاربه، وأستاذه عبده الإسكندراني ولجنة المناقشة وعميد الكلية ورئيس الجامعة ما لا يقال!

يستعيد سيرة أبيه وشجاره الليلي مع أمه بعد عودته من الحانة. يشعر أنه ابن أبيه حقا، بل يفوقه دون أن يعود إلى زوجة تؤنبه أو تخوفه من نار جهنم، أو تذكره بأولاده وواجباته نحوهم. إنه أعزب بلا زوجة يفعل ما يشاء، فهو بعد السهرة يعقد الصفقة مع بائعة الهوى التي تعجبه ويصحبها إلى الاستراحة في الهزيع الأخير من الليل، حيث تكون الدنيا قد نامت، وسكنت، وأوت الطيور والقطط والصراصير والضفادع إلى مضاجعها، إلا سيد ورفيقته.

في المدن الريفية تعرف الأسرار الخفية من خلال الهمس الذي ينتشر أو يتسلل على ألسنة أهل النميمة. لا يخفى سر في المدينة. هم يعرفون ما يجري في كل مكان، وخاصة ما يتعلق بالطارئين أو المقيمين إقامة مؤقتة. السكان الأصليون أو المقيمون الدائمون يعرف بعضهم بعضا إلى حد كبير. أما الغريب الطارئ فالعيون تتركز عليه وتتربص به، ويحظى باهتمام أكبر إذا كان ممن لا يراعون التقاليد السائدة، أو يمارس سلوكا مرفوضا، وقد يتحرشون به عن طريق بعض الشباب الذي يرى أن مخالفة التقاليد عدوان على المدينة الريفية وأهلها، ولكن سيد عبد الله ما زال خارج

مجال الاهتمام الشعبي..

قال لزميله بعد إحدى السهرات:

- هذه المدينة متخلفة. تهتم بسلوك الآخرين، ولا تهتم بشئونها.

نظر إليه زميله مستفهما، فأوضح سيد:

- إنهم يراقبوننا، ويتابعون ما نفعل!

رد عليه زميله بتلقائية:

- هذا أمر طبيعي. ألسنا في حكم الغرباء؟

- لم نعد غرباء. لنا سنوات نقيم فيها، ويفترض أننا صرنا منهم.

سكت زميله للحظة، ثم سأله بدوره:

- وهل ما نفعله يجعلنا منهم؟ إنهم لا يتابعون المشغول بعمله، ومن ينام مبكرا.

وأطلق ضحكة ساخرة كأنها تفسر تهافت اعتراض سيد على متابعة الناس له ولزملائه.

وانطلق سيد وزميله في طريقهما إلى الاستراحة.

كان أذان الفجر ينطلق من أحد المساجد المجاورة، ولكن النوم غلب سيدا، فراح في سبات عميق، تملأه الأحلام والكوابيس، فيصحو ليشرب بعض الماء، ويعود إلى السبات العميق.

❖ ❖ ❖

كان سيد مشغولا بوضع اللمسات الأخيرة للدكتوراه، والاستعداد لمناقشتها. لن تكون المناقشة في الكلية التي يعمل بها،

ولكنها ستكون في الكلية التي سجّل فيها، وهي التي تخرج فيها، ويوجد بها المشرف الأستاذ الكبير الدكتور عبده الإسكندراني، فالرجل «لقطة» كما وصفه سيد في أول لقاء به عندما تقدم للدراسة التمهيدية، وقد وجد لديه تناغما جيدا، فالرجل كريم جدا مع أمثاله الذي يعرفون كيف يقدمون المقابل ماديا أو معنويا، وقد ساعده مساعدة كبيرة أيام إعداد الماجستير، لدرجة أنه دفع بعض تلاميذه ممن منحهم الماجستير والدكتوراه، كي يجلسوا مع سيد الساعات الطوال في الأيام الطوال، ليوجّهوه، ويوفّروا له المراجع، ويرشدوه إلى الاقتباسات والنصوص التي تخدم موضوع بحثه، وتضاحك بعضهم مع سيد ساخرا:

- لم يبق يا سيد إلا أن نكتب لك البحث على الآلة الكاتبة!

فيقهقه سيد ويرد ببساطة:

- سأخدمكم في الأفراح إن شاء الله!

لا ينكر سيد أن أستاذه بذل معه جهدا كبيرا في الدكتوراه. كان الرجل يعلم أن تلميذه لا يقرأ خارج المقررات مذ كان طالبا في مرحلة الليسانس، بل هو من المخاصمين للقراءة بصفة عامة حتى الصحيفة اليومية لا يتابعها إلا استثناء، وإذا طالعها فإنه يهتم بصفحة الحوادث. لا تعنيه الأخبار العامة أو العالمية ولا الاقتصاد ولا الثقافة ولا الكلمات المتقاطعة. حين سألوه في التنظيم الطليعي عن قراءاته في السياسة، رد عليهم بأنه يحب الزعيم ويفتديه بروحه، وهو ما لا يحتاج إلى قراءة في السياسة أو غيرها. فتعجبوا

واستوضحوه، كيف يكتب التقارير التي تطلب منه؟ قال لهم: الأمر بسيط للغاية. من يكره الزعيم أو يقول عنه كلاما سيئا فهو عدو الثورة وضد الزعيم. لم يهتم بمحاكمات مراكز القوى ولا رءوس التنظيم الطليعي، ولكنه فهم أن نظام السادات سيغيّر النظام، ويأتي بقوم آخرين!

يساوره شيء من القلق في مناقشة الدكتوراه، فقد اختار الأستاذ الكبير أحد أعضاء اللجنة من الذي يوصفون بالتشدد. لا يعرف كيف يواجهه، لأنه يصر على أن يجيب الطالب عن أسئلته، ويقضي وقتا طويلا في المناقشة دون أن يبدو عليه شيء من الإرهاق أو التعب. يتوقف عند كل سطر، وكل جملة، وفي لغته حدة واضحة تشمل التقريع والتوبيخ و تكاد تصل إلى الشتم والإهانة. ماذا سيفعل مع هذا المناقش؟ لا يدري، ولكن الأستاذ الكبير يطمئنه، ويقول له لا تخف!

راح يعد العدة لدعوة أسرته في السويس لحضور المناقشة مع زملائه ومن يعرف من زملاء المهنة القديمة «بياض المحارة»، وأصدقاء المقهى في الحارة التي كان يسكن بها. ولكن شبح المناقش المتشدد يرعبه، ويخشى أن يشاهد المدعوّون الأقارب منظره وهو يتصبب عرقا عندما يعجز عن الإجابة أو يتلعثم في نطق بعض العبارات، أو يبدو مهزوما أمام اللجنة والمشاهدين.

وجه الدعوة لبعض زملائه في العمل والاستراحة لحضور المناقشة، وسبقهم إلى الكلية التي فيها أستاذه. وراح يجهز

الإعلانات التي تحمل أسماء اللجنة وموعد الانعقاد والمدرج الذي يستقبل اللقاء، وأخذ يجدد الزيارة للمناقشين، ويتابع مع الموظفين الإجراءات المطلوبة، ويرتب مع البوفيه تقديم المشروبات، ويستعد لاستقبال أسرته عند وصولها.

لم ير والديه منذ سنوات. يحب أمه مع قسوتها عليه وعلى إخوته، ويتعامل مع أبيه بشيء من الحياد، لا يحبه ولا يكرهه.

أمه تمثل له ملاذا كان يلجأ إليه عندما يواجه مآزق في عمله مذ كان صبيا يسعى للحصول على بعض المال ليساعدها في توفير متطلبات البيت. كانت قسوتها عليه ليتجنب الأخطاء التي تحرمه من العمل أو الحصول على الأجر. وكان يعلم أنها على صواب، وأنها مع قسوتها تحبه وتخاف عليه، ولكنه في سنوات البعد عن الأسرة، وتخليه عن رعايتها بعد أن كبر إخوته لم يسمع صوت أمه. كان يتمنى في بعض الأوقات أن يكون بجانبها أو تكون بجانبه، ولكن الحياة تستغرقه. لا يفكر في مسقط رأسه مذ حدث التهجير بعد الهزيمة. صحيح أن معظم المهجرين رجعوا إلى بيوتهم، أو يزورنها من حين لآخر، ولكنه لم يحن إليها أبدا. لم يفكر في رؤية أبيه بعد أن ترك مهنة المحارة، وصار ضمن هيئة التدريس في الجامعة. صحيح أنه ما زال في الهيئة المساعدة، ولكنه بعد مناقشة الدكتوراه، والحصول عليها سيصير عضوا أساسيا في الهيئة، ويكتسب لقب دكتور، وينضم إلى قسم يجلس مع أساتذته ومن هم أقدم منه، وإذا عين في مجلس القسم سيكون له صوت مثل أي

أستاذ، و يخصص له جدول ومواد، ومحاضرات يلقيها على الطلاب، و يكون له مكتب خاص، و يتعامل معه السعاة والموظفون بطريقة خاصة فيها مزيد من الاحترام والتقدير. جامعات الأقاليم تفتقر إلى التقاليد والقيم الجامعية، بحكم استقدام موظفيها من مدارس التعليم العام، وقلة خبرتهم بالعمل الجامعي، ولكنهم سيتعاملون معه بطريقة معقولة، وهو يفهم لغتهم على كل حال، و يستطيع أن يطوّعهم بأسلوبه لما يريد!

أمنيته أن تحتضنه أمه، وأن يأكل من الطعام الذي تطبخه، ولكن الدنيا باعدت بينهما. فانشغلت هي بإخوته ومشكلاتهم، وزواج بعضهم، والمتاعب التي يسببها والده، وعاش هو لنفسه ومستقبله. سيقابلها قريبا و يلتقي بأبيه و إخوته، ولن يسأل كثيرا عن أحوالهم فلديهم مشكلاتهم الكثيرة، ولا وقت لديه ليدخل في غمراتها والبحث عن حلول لها. يكفي أنهم سيرونه دكتورا يتلقى التهاني والقبلات، و يرتدي الروب الجامعي، و يقف وسط أعضاء اللجنة، والأستاذ الكبير عبده الإسكندراني يبتسم ابتسامة عريضة تعطي إشارة البدء في سباق طويل المدى، وتفتح الطريق أمام التلميذ إلى آفاق جديدة لم يكن يحلم بها.

❖ ❖ ❖

في طريقه مسافرا لإجراء المناقشة؛ صحبه بعض زملائه. ركبوا القطار السريع، وقضوا أياما قبل المناقشة في شقة اختارها بعض أصحابه، وفي صباح اليوم المقرر لانعقاد اللجنة، ارتدى أفضل

ما لديه من ثياب، وذهب إلى المدرج واستقبل أسرته، وعانقهم، وراحت أمه تلومه على ابتعاده عنهم وعدم زيارتهم، وهو يبتسم ابتسامة باردة حائرة، ولا يحير جوابا، لا يملك غير الترحيب، ولسانه ينطق «أهلا وسهلا» يكررها باستمرار، وكأنه لم يرزق من التعبير سواها.

وصل بعض أصحابه ومعارفه، وحضر بعض طلاب الدراسات العليا الذين يهتمون بحضور مناقشات الرسائل العلمية ليفيدوا من أخطاء الباحث، فيتجنبوها في أبحاثهم، ومن إيجابياته فيركزوا عليها.

وجاء زميله فتحي محروس الذي كان يعمل بالسباكة وشجعه على الالتحاق بالدراسات العليا، فاحتضنه، وكان عناق طويل، واستعادة لذكريات قديمة، ولكن المفاجأة أن زميله سبقه، وناقش الدكتوراه قبله، وصار مدرسا بالكلية.

همس سيد في أذنه مازحا:

- أما زلت تعمل بالسباكة؟

قهقه فتحي محروس بصوت عال، وقال له هامسا:

- إنك شيطان رجيم. أتظن أنني بعد الدكتوراه أحترف المهنة؟

وضحك الصديقان، وانطلقا إلى مكتب رئيس القسم ليقابلا لجنة المناقشة، استعدادا للقاء الصعب كما يتوقعه سيد عبد الله.

❖ ❖ ❖

(١٠)

كان الأستاذ الكبير الدكتور عبده الإسكندراني يجلس في مكتب رئيس القسم ومعه عدد من الأساتذة ومن بينهم عضوا المناقشة. العضو الداخلي، والآخر الخارجي الذي يتوجس منه سيد شرا. الأستاذ الكبير محل حفاوة مبالغ فيها من جانب الحاضرين. وهو يملك زمام الحديث الذي يتناول أمورا متنوعة، ولكن أغلبها يدور حول الترقيات والمناصب والمرتبات والإعارات والدراسات العليا، وقد يتطرق إلى بعض الأمور الشخصية التي تتعلق بفلان أو علان في هذا القسم أو ذاك مما يدخل تحت النميمة التي تشبع رغبات من يحبون الظهور، أو الشهرة، أو لديهم شهوة نقل الكلام، وتتبع أخبار الآخرين..

دخل سيد الغرفة ومعه زميله فتحي محروس. سلم على أستاذه، وانحنى راكعا يكاد يقبل يديه، لولا أن الرجل بدا مشمئزا من الطريقة التي يعبر بها عن احترامه له، لقد كال له المدائح متتابعة، لدرجة تجعله موضع التقديس، وهنا تذكر الرجل ما قاله قائد كبير ذات يوم: «من يعرف كيف يمدح يعرف كيف يشتم!». وساءل نفسه: «هل يمكن في يوم ما أن يشتمني هذا الولد؟».. ووجه حديثه إلى عضو المناقشة الخارجي الذي يتوجس منه سيد خيفة:

- يا دكتور مصطفي.. هذا هو العريس!

يقصد أنه الطالب صاحب الرسالة موضوع المناقشة.

فرد الرجل في مجاملة تلقائية:

- مرحبا..

أقبل سيد منحنيا على يده أيضا، ولكنه سحبها سريعا، متمتما:

- بالتوفيق إن شاء الله.

وتابع سيد مدائحه وتحياته للعضو الثالث ثم الأساتذة الحاضرين، بينما اتخذ زميله فتحي محروس موقفا طبيعيا، احترام الآخرين مع احترام نفسه.

قال الأستاذ الكبير موجها حديثه إلى الأساتذة:

- كنت أتمنى أن تكون امتحانات الماجستير والدكتوراه مثل التي تجري في جامعات الغرب.

حظي كلامه باهتمام الحاضرين، وسأل أحدهم:

- كيف تجري هذه الامتحانات يا أستاذنا؟

- تجري في بساطة شديدة. يختار الأستاذ زميلا له، ويحدد للطالب موعد المناقشة، وفي مكتبه يجلس الطالب في الموعد المحدد يستمع إلى الأسئلة التي يوجهها كل منهما إليه حول الرسالة، وبعد إجابة الطالب تنتهي المناقشة، ويكتب الأستاذ النتيجة في تقرير يرفعه إلى إدارة الكلية.

سأل آخر:

- لا يشترطون مناقشة علنية، ولا اختيار أستاذ من خارج الكلية.

- لا.. يختار زميلا من الكلية في التخصص فقط. وبعض الكليات تكتفي بالأستاذ المشرف فقط، ثقة مطلقة منهم في أساتذتهم
- إذا لا إجراءات تستغرق وقتا طويلا، ولا موافقات المجالس المعنية، ولا تقارير اللجنة بصلاحية البحث من عدمه، ولا إخطار الجهات الإدارية في الكلية بموعد المناقشة.. ولا موافقات أخرى للمجالس نفسها بعد إعلان النتيجة.

وأضاف آخر إلى كلام زميله:

- ولا توجد عندهم الاحتفالية العلنية التي يسميها بعض الزملاء «بالتجريسة»!

تساءل بعضهم في تجاهل العارف:

- التجريسة؟ هل هو لص قبضوا عليه، ويعاقبونه بركوب حمار بالمقلوب، ويدورون به في الشوارع والحارات، والأطفال تجري وراءه وتهتف ضده؟

انطلقت الضحكات من الحاضرين، وهم يتهكمون على مصطلح التجريسة، فتدخل أحدهم ليجعل دفة الحيث تتجه نحو الجدية:

- هناك بالفعل من يسرق. وهؤلاء أشد خطرا، ويجب تجريسهم كما كان يحدث للصوص قديما. لأن هذا اللص سيكون تأثيره في غاية السوء على طلابه بوصفه أستاذ المستقبل، الذي يجب أن يكون قدوة لهم في الأمانة والالتزام.

تدخل الدكتور مصطفى:

- لقد انتشرت اللصوصية بين كثير من الباحثين، وتشعر أن بعضهم لم يقرأ شيئا ذا بال، ولا يحسن الأدوات الأولية للغة بدءا من الإملاء مرورا بالصرف والنحو حتى التراكيب والصياغة، ومع ذلك نجد تساهلا كبيرا تحت ذرائع مختلفة غير مقنعة لمن يريد الارتقاء بالبحث العلمي.

وهنا أمسك سيد بطنه. فقد جاء كلام الدكتور مصطفى مخيفا له، ومرعبا، واستغرق في تخيل ماذا سيحدث له أو يفعله به عند المناقشة.

تابع الدكتور مصطفى:

- إني أتفق تماما مع الرأي الذي يعطي الأستاذ صلاحية كاملة، وأؤيد الطريقة التي تجري في جامعات الغرب بالنسبة لمنح الماجستير والدكتوراه، وضرورة أن يدرس الباحث مقررات دراسية عميقة قبل الحصول عليهما، ولكنني بصراحة شديدة لا أرى مفرا من اتباع النظام القائم..

ساد الصمت ، وأخذوا يترقبون تعليل الدكتور مصطفي لموقفه.

- تعلمون أن مجتمعنا يقوم على المجاملات والاستجابة للاستعطافات والرجاءات، ولا أريد أن أقول إن بعض الأساتذة ليسوا على مستوى الأمانة العلمية، ولهذا لابد من وجود لجان للمناقشة وتقارير تصدر عن الأعضاء ليتحقق التوازن ويقل حجم الفساد العلمي!

لم يعلق أحد على ما أوضحه الدكتور مصطفي، وسمع الحاضرون أحدهم يقول معقبا:

- في الكليات العملية عندنا نظام قريب من النظام الغربي. فهم يشكلون لجنة وبها عضو خارجي، وتنفرد اللجنة بالطالب تسائله عن موضوعه وتطرح أسئلتها حوله، ولكن بعض الكليات تسمح للجمهور بحضور المناقشة عبر حاجز زجاجي، لا يسمعون فيه ما يجري بين الطالب وأساتذته، ومناقشاتهم لا تستغرق وقتا طويلا، لأن الرسائل هناك تركز تركيزا شديدا على النتائج التي توصل إليها البحث، وطرق الوصول إليها.

عقب الأستاذ عبده الإسكندراني، وكأنه ينهي الحوار:

- ما زال أمر التعليم في بلادنا يحتاج إلى إصلاح جذري جاد، يبدأ من الصف الأول الابتدائي يقوم به مصلحون جادون مستقلون تماما، ويملكون القدرة على الإعلان عن أفكارهم العملية تجاه المشكلات التعليمية المزمنة، ثم التفت مشيرا بيده نحو سيد عبد الله، وأردف: حان الوقت لمناقشة الطالب في رسالته.

ونهض واقفا، وتبعه الحاضرون، وارتدت اللجنة والطالب الأرواب الجامعية التي أحضرها العمال من مكتب العميد، وانتقلوا إلى قاعة المناقشة أو الاحتفالية.

❖ ❖ ❖

افتتح الأستاذ الكبير المناقشة مرحبا بالحضور، ومقدما لعضوي اللجنة الآخرين ومقرظا لهما وفقا لما جرت عليه العادة،

ثم عرّف بالطالب، ودعاه لتقديم ملخص لبحثه، وبدأت المناقشة، والجمهور يتابع الملاحظات وخاصة قذائف الدكتور مصطفى، وكانت الأم تتفاعل مع رد الفعل على جبين ابنها، وتكاد تصيح بالدكتور مصطفى أن يكف عن كشف الأخطاء في رسالة ابنها وإحراجه أمام الناس..

انتهت المناقشة بعد وقت طال كثيرا على سيد، خفف من ثقله إجازة الرسالة بمرتبة الشرف الأولى!

بعد إعلان النتيجة انطلقت زغاريد النساء، واندفع سيد نحو اللجنة مصرا على تقبيل أيدي أعضائها جميعا، ودمعت عينا أمه، وابتسم أبوه، وصفق إخوته بحرارة، وهاجت القاعة وماجت بمشاعر الفرح والانتصار.

انفضّت الاحتفالية، وودع سيد أسرته، وقالت له أمه بعد أن أشبعته تقبيلا على خديه وجبينه:

- لا تنس أهلك يا سيد. زرنا يا سيد. لا نريد منك شيئا غير الزيارة يا سيد..

كانت الأم تلهج برجائها المتكرر، وسيد في واد بعيد يحلم بمستقبل آخر وزمن آخر، بينما زميله فتحي محروس يحاول استعادته من عالم الأحلام، ويجيب الأم نيابة عنه بما يرضيها.. فشلت محاولات استعادة سيد لأمه، مكتفيا بترديد بعض العبارات التقليدية، والوعد بالذهاب إلى موطنه، ورؤية الأهل والخلان. تركه فتحي لأحلامه، ومضى رفقة أسرته مودعا لها وهي عائدة إلى

مدينتها، تشعر بانتصار كبير على متاعب الزمان، فقد أصبح لديها دكتور في الجامعة تفاخر به الجيران وأهل السويس جميعا.. وليته يتنازل ليزورهم أو يسأل عنهم أوعن أحوالهم.

كان سيد منتشيا وسعيدا بصورة لم تحدث من قبل. ها هو الآن عضو هيئة تدريس بحق وحقيق. مثله مثل أي أستاذ، ولو كان الأستاذ الكبير عبده الإسكندراني، وصارت رأسه برأس أي أستاذ يتولى منصبا كبيرا، ولو كان الوزارة أو رئاسة الجامعة، أو العمادة أو الوكالة أو رئاسة القسم.

الأهم أنه سيدرّس للطلبة، ويدخل المحاضرة شامخا، والطلاب والطالبات أمامه مثل العصافير في القفص، لا تستطيع أن تتجاوز جدرانه، وينادونه باللقب الذي حلم به منذ زمان: يا دكتور! سيتاح له أن يعبر عن آرائه في المادة التي يحاضر فيها، وينتقد أساتذته الكبار، وانتبه إلى أنه لا يملك رصيدا من القراءة والمعرفة والثقافة يتيح له أن يدخل إلى لب الفكرة وأعماقها حتى ينتقدها أو يعبر عن وجهة نظر فيها، رأى أنه يمكن أن يتجاوز هذه المشكلة، ويركز على بعض الهوامش التي يستوعبها بسهوله وبها يستطيع أن يثبت أنه يملك علما ورؤية، سوف يطلب من الطلبة والطالبات الذين يريدون الاستفهام عن مسألة في المحاضرة أو نقطة معينة في الموضوع أن يقابلوه في مكتبه، ليشرح لهم ويوضح. إنه ليس أقل من طه حسين أو تلميذه شوقي ضيف، أو عبده الإسكندراني. سيكون أستاذا كبيرا يشار إليه بالبنان، وتتحدث عنه الصحف التي

لا يشتريها إلا نادرا، وأجهزة الإعلام الكذابة التي يحب كذبها المفضوح، ويدعى إلى الندوات الشكلية التي تشبع نرجسية بعض الكتاب والأدباء كما يعتقد، ويشارك في المؤتمرات ذات العائد الصفري كما يظن..

سأل نفسه: كيف يواجه الجمهور في الندوات العامة والمؤتمرات وهو خالي الوفاض؟ إن عمله في المحارة لم يهيئ له فرصة للاطلاع وزيارة المكتبات والحصول على الثقافة العميقة..

يعرف صحفيا لامعا كان يخدع الجمهور بثقافته المتنوعة، ومعرفته لعشر لغات أجنبية، وترجمته لكثير من الأعمال الأدبية، ولكن المقربين منه يعلمون أن مساعديه ومن يستأجرونهم يقومون بمهمات الترجمة ومشكلاتها الصعبة، والرجل شاطر في التقاط الأفكار والمصطلحات من عناوين بعض الصحف والمجلات الأجنبية التي يطالعها ، أو يترجمها له مساعدوه، أو تلخيصها بمعنى أدق!

لماذا لا يكون سيد مشهورا مثل هذا الصحفي الشاطر الشهير؟

لماذا لا يفعل مثله، ويأتي بمن يترجم له أو يلخص؟

هل يحفظ بعض الخطب ليرددها في كل مكان، كي لا يكشف الناس عجزه وقصوره؟

سيركز في الفترة القادمة على حضور بعض الندوات والمؤتمرات بوصفه واحدا من الجمهور ليستمع إلى ما يقال وما يردده المتحدثون والمعلقون ويكون لديه إلمام بما يجري في

الحقل الثقافي، ولا بأس أن يزور بعض النوادي الأدبية ليصغي للأدباء والنقاد ويلتقط منهم ما يقال ويطرح في الساحة الثقافية من موضوعات ومصطلحات، ليكون على دراية ووعي بما يجري حول تخصصه.

نسي أنه لم يحاول شراء كتاب إلا في مناسبات قليلة وكان مضطرا لشرائه لسبب أو آخر. اكتفي باستعارة الكتب من زملائه وأساتذته، هل يغير عادته في الاحتفاظ بكل قرش ويبدأ في شراء الكتب المهمة وتثقيف نفسه بالقراءة؟

سيجعل من نفسه شيئا مهما في المستقبل شاء الآخرون أم أبوا، وها هي كليته تناديه، ليعلم جميع من فيها أنه حصل على الدكتوراه، ولا بد أن أصدقاءه وزملاءه سيعلقون اللافتات على أبواب الكلية تهنّئه، وتتمنّى له مستقبلا زاهرا، في خدمة العلم والتعليم الجامعي!

غدا سيرحل إلى الوجه القبلي، ويصحب معه زملاءه الذين رافقوه في رحلة الذهاب إلى المناقشة أو من لحقوه للمساندة والمؤازرة والتهنئة بعد إعلان النتيجة، وقبل ذلك عليه أن يزور رفاق مهنة المحارة في قهوته المفضلة على رأس الحارة التي كان يسكن بها من قبل، ليعلن من لم يعلم أنه صار «دكتورا»، وشخصية مهمة في الجامعة، ثم يستمتع معهم بالشيشة والسهر لدى أحدهم للشرب والانبساط، وأيضا يتعرف على أخبار سعاد التي تزوجت، وأمها التي قيل إنها ماتت بعد زواجها بفترة قليلة.

❖ ❖ ❖

(١١)

وجد سيد عبد الله نفسه بعد وصوله إلى كليته، محاطا بزملائه المدرسين المساعدين والمدرسين وبعض الطلاب القريبين منه يهنئونه، ويرحبون بعودته حاملا رخصة الوجود الجامعي. كان هناك عناق وابتسامات وضحكات، ومظاهر بهجة ملفوفة في ضجيج الترحيب والتهنئة. اقترح أحدهم إقامة حفل شاي في القسم بهذه المناسبة السعيدة. وراح من فوره يعهد إلى البوفيه بإعداد ما يلزم على وجه السرعة..

اجتمع المنتسبون إلى القسم من أعضاء ومدرسين ومساعدين ومعيدين، وبعض الطلاب الفائقين، في غرفة كبيرة وتناولوا الشاي مع بعض الحلويات والمخبوزات، وكانت الكلمات المعبرة عن المناسبة والتهاني والتمنيات تنهال على سيد من كل حدب وصوب:

- عقبى للأستاذية.
- إن شاء الله ترقى وتصبح عميدا ورئيسا للجامعة ووزيرا.
- انتظروا يا جماعة.. نتمنى أن نراه أولا زوجا هادئا بدلا من هذا الأعزب الصاخب. وتعالت الضحكات.
- الزواج حكومة مستبدة تفرض عليه حظر التجول من الغروب حتى الشروق، وتكبله بقيود حديدية.

- مبارك يا عم سيد، راتبك سيزيد، وحان موعد وصول العروسة.
- العرائس الجميلات كثيرات. والدكتوراه مع العروسة صفقة رابحة جدا.
- مبروك لعصر جديد من الانضباط. وداعا لعصر الصرمحة والانفلات!

ضحك الجميع، وبعد الحفل انصرف سيد مع بعضهم إلى الاستراحة، ليغلق على نفسه غرفته، ويخطط لما سيفعله في الغد.

❖ ❖ ❖

في مجلس القسم، لقي سيد ترحيبا آخر رسميا، سجله أمين المجلس في محضر الجلسة، واعتمد مذكرة ومعها مرفقات لتعيين سيد مدرسا بالقسم في تخصصه الدقيق، وتم تكليفه بالإشراف على النشاط الثقافي بالقسم مع زميل قديم. على أن يسند إليه في بداية العام الدراسي الجديد جدول محاضرات، بدا سعيدا ومبتهجا، وشعر أن عهد الشقاء الذي قضاه عامل محارة، قد ولّى وإن كان يحنّ إليه، وأن الأيام الوردية الجميلة قد أقبلت، وأن خشونة يديه اللتين عمقتهما المحارة أخذت في الزوال، لتحل مكانها نعومة الزمان الرغد، والعهد المشرق.

المحارة جزء من تكوين سيد عبد الله. وإذا كانت الخشونة قد زالت أو بدأت تزول من يديه الخشنتين؛ فإنها لم تزل باقية في رأسه وذهنه ولسانه، ألم يكن زعيما للمهنة ذات يوم، ولكنه تنازل أن يكون الزعيم الرسمي، واكتفى بالزعامة المعنوية التي تجعله

صاحب مقام وقيمة في المهنة، وعند أربابها، ويحتكمون إليه أحيانا لحل مشكلاتهم، ومواجهة بعض المتاعب التي تعترضهم في العمل، ومازالت طبيعة المهنة تفرض عليه طريقة التفكير، حين يهيئ برش الإسمنت طبقة خشنة تساعد على لصق الملاط أو الخلطة المكونة من الرمل والإسمنت بعد رشها بالماء، فهو يواجه الموضوع الذي يشغله، بالتمهيد، واستخدام الحيل كي يصل إلى ما يريد. إنه يتعامل بمنطق المادة ليصل إلى ما يريد، لا مكان عنده للعواطف أو المشاعر أو الاعتبارات الإنسانية. لا يعرف شيئا اسمه اللباقة. إنه يصل إلى هدفه مباشرة، ويستخدم اللغة الخشنة والسلوك المادي الجاف. حين يطلب حاجة ممن يملكون، ينحني بجذعه إلى أسفل، بل إلى الأرض إذا دعت الضرورة ليقنع من بيده الأمر أنه عبد ذليل ليمنحه طلبته. وقد يستخدم لغة مدببة مع من هم أقل منه، أو من يراهم ضعافا، ولكنه عند القوة، يتحول إلى أرنب ناعم الملمس ويكون هادئا وديعا..

ذات يوم وهو يعمل بالمهنة أعجبته فتاة تعمل في حانة شعبية في أطراف المدينة، كان الليل قد اقترب من الهزيع الأخير فعرض عليها الزواج بطريقة مباشرة، فصعقت الفتاة:

- تتزوجينني يا نوسة؟

لم ترد الفتاة، وراحت تنظر إليه في اندهاش وذهول، ووجدت لسانها ثقيلا.

- تتزوجينني يا بنت..؟

لم تستطع أن تحرك لسانها، وتسمرت عيناها على شفتيه، لاحظ ذهولها وصدمتها، لم تصدق الفتاة أن شخصا مثله يبدو «أفنديا» كبيرا، يهبط إلى مستوى فتاة مثلها، بسيطة وضعيفة ومهنتها محتقرة، ويفكر في الزواج منها. ثم إنه لا يعرف عنها شيئا ولم يسبق أن كلمها أو تحدث إليها. هل هو بكامل وعيه؟ هل جاءته هذه الرغبة في الحلم، لا تعلم. وحين رأي صمتها المطبق، راح يسبها بأقذع الألفاظ، ويرميها بأبشع البذاءات، وينقض عليها ليفتك بها، لولا تدخل رواد الحانة، الذين استغربوا فعلته، وقدروا أنه أفرط في الشراب، وإن لم يعلموا أن وعيه لا يغيب بسهولة، بوصفه مدمنا عريقا ومحترفا، عرف أحط أنواع الشراب..

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة التي تكشف لغته الخشنة التي لا تعرف النعومة، هناك حوادث أخرى عديدة شهدها جمع كبير من الناس أو عدد محدود، كانت لغته مسامير محماة على الضعفاء ومن لا يخشى بأسهم.

تمنى فتحي محروس أن يتحول صديقه سيد عبد الله من لغة المحارة إلى لغة الجامعة، وأن تهذب لغته بحكم علاقته بأساتذة مفكرين، لغتهم ناعمة مهذبة، لا يرتفع صوتهم إلا نادرا وعند الضرورة؛ كأن يكونوا في محاضرة تقتضي مزيدا من الشرح أو مزيدا من التوضيح.. تقاليد الجامعة العريقة أو الجامعة الأم في زمن بعيد كانت تقضي أن يكون السلوك الجامعي مهذبا، واللغة الجامعية راقية، وخاصة فيما بين أعضاء هيئة التدريس، وفيما

بينهم وبين الطلاب، ولكن دخول الجامعات الإقليمية وما تضمه من أعداد طلابية كثيرة بلا تجهيز علمي جيد، أسقط التقاليد الجامعية، وجعل لغة الجامعة خليطا من النعومة والخشونة، بل جعل العلاقة بين لغة الأساتذة والطلاب تبدو أقرب إلى لغة السوق والزحام..

لم يستطع سيد أن يتخلص من لغة السوق التي تجذرت تحت لسانه؛ مع أنه أمضى سنوات عديدة منذ تعيينه مدرسا مساعدا في الكلية. كان يستقبل بعض الطالبات في مكتبه، فيتعامل معهن كأنهن صبيانه الذين يناولونه الملاط وهو فوق السقالة. يشخط وينطر، ولا مانع أن يرسل عبر حديثه بعض الألفاظ السوقية أو البذيئة، وكانت الطالبات يشعرن بغلظته وخشونته، فتحمر وجوههن، ويعتريهن الخجل، ويضطر بعضهن إلى الانسحاب، مؤثرات البحث عن معونة أعضاء آخرين.

فوجئ ذات يوم بأستاذ مهيب السمت أشيب الشعر يدخل عليه مكتبه، ويسأله:

- قل لي يا بني، أين رئيس القسم؟ إن مكتبه مغلق.

راح يجمع الكلمات ويجيب الأستاذ:

- إنه في محاضرة!

وتشجع قائلا:

- تفضل.. انتظره هنا حتى ينتهي..

ثم بحركة انحناء مبالغة في الترحيب:

- ماذا تشرب أستاذنا؟
- لا شيء. استرح يا بني..
- لا يا أستاذنا. أنت ضيف وشرفت كليّتنا.

وأضاف:

- إني أعرفك. رأيت صورتك في التلفزيون.
- ألا تعرفني إلا من التلفزيون؟ ألم تقرأ لي كتابا؟
- بلى يا أستاذنا. أنت نار على علم. اسمك معروف، ولكني لم أتشرف بمعرفتك شخصيا إلا الآن، ولكني رأيتك في لقاءاتك التلفزيونية.
- شكرا يا بني..

ثم سأله:

- ما اسمك يا بني؟
- ابنكم سيد عبد الله، مدرس مساعد بالكلية ، وسأناقش الدكتوراه قريبا.
- بالتوفيق يا بني. بالتوفيق يا بني..

نهض الأستاذ الضيف، وقال لسيد:

- سأذهب إلى العميد لأحدثه في أمر ما ثم أعود مع انتهاء رئيس القسم من محاضرته.
- ألا تشرب الشاي أستاذنا؟
- فيما بعد.. إن شاء الله.

- إذا سأصحبك إلى مكتب سيادة العميد.
- لا داعي يا بني. أنا أعرف مكانه.

كانت لغة سيد مع الأستاذ المهيب ناعمة ورقيقة إلى حد السيولة، وتختلف عن لغته مع الطلاب والطالبات وغيرهم. هو يعلم ذلك جيدا. كان من يحظون بلغته الناعمة قليلون. إنه يؤمن في أعماقه أن الذي أمامه يجب أن يخضع له، مثلما يخضع هو لمن يخشاهم، ولهذا انتصرت لديه لغة المحارة، مع أن كثيرا من أهلها طيبون وبسطاء، وخاصة في الأرياف.

❖ ❖ ❖

طرق باب غرفته في الاستراحة زميله في الكلية وجاره في السكن صبحي بطرس المدرس في قسم المناهج.

جلس صبحي، ومازحه قائلا:

- ألا نشرب شايا؟

قال له سيد:

- المطبخ أمامك، واصنع ما تشاء!

شعر صبحي أن زميله ليس على ما يرام، فراح يستدرجه ليعلم سر تغير مزاجه في يوم فرحه بالحصول على الدكتوراه والتعيين في وظيفة مدرس. نظر إلى صاحبه بخبث وسأله:

- أهي غاضبة عليك؟
- من؟

- فتاة الأمس؟

تبسم سيد، ورد بالنفي.

- إذا لماذا أنت مكتئب؟

- لا شيء. أفكر في بعض الأمور المزعجة.

- مزعجة؟ مثل ماذا؟

كيف يبدأ في البوح؟ لا يدري، ولكن صاحبه شجعه على الفضفضة:

- كل عقدة ولها حلاّل؟

- لا أظن لهذه العقدة حل!

- أي عقدة؟ قل قل يا رجل..

- الزواج!

قهقه صبحي وهتف:

- ياه! أخيرا يا عرب؟ سيصبح لك بيت مستقل، وسكن تأوي إليه منذ الغروب، وزوجة تنتظرك بعد أن اقتربت من الكهولة..

وتابع:

- إن الأمر بسيط. المهم أن تجد أولا الطرف الآخر الذي تقتنع به.

- ليس معي من المال ما يساعد على إتمام الأمر. التكاليف باهظة.

- كل شيء يمكن تدبيره.

- من أين؟ إن أحد أشقائي معه دبلوم تجارة، و يعمل ميكانيكيا، فضّلته طبيبة على مدرس ثانوي، فقد استأجر لها شقة، وقدم لها شبكة غالية من الذهب، وجهّزها تجهيزا فخما، وأقام حفلا للخطوبة، وآخر للزفاف أنفق فيهما مبالغ كبيرة، لا أملكها.. الانفتاح قلب المعادلة كما تعلم. أصحاب الشهادات العليا صاروا شبه متسولين. أضعف دخلا من الحرفيّين والتجار الأميّين أو الذين يحملون شهادات متواضعة. هل أقدم للعروسة شهادة الدكتوراه دون مال؟ ستقذفها في وجهي!

نهض صديقه صبحي، متجها إلى المطبخ، قائلا:

- فلنشرب الشاي أولا، ثم نبحث في المشكلة.

ولم يلبث أن عاد بعد فترة وهو يحمل صينية صغيرة عليها قدحان من الشاي، و يدندن بأغنية لا مناسبة لها:

الليلة عيد ع الدنيا سعيد

وجلس بجوار صديقه الحميم في السراء والضراء منذ التقيا قبل سنوات في الاستراحة أول ليلة جاء فيها ليتسلم وظيفة المدرس المساعد. والتفت إليه صبحي قائلا:

- أولا عليك ألا تضخّم المشكلة، وثانيا سيزيد راتبك بعد تعيينك مدرسا، وستدرّس جدولا يمكنك من خلاله أن توزع كتبا وتحصل على عائد لا بأس به، كما تحصل على مكافأة امتحانات وتصحيح وكنترول، وثالثا نبحث عن زميلة مستعدة للإسهام معك في تكاليف الزواج، و يجتمع راتبك إلى راتبها

فتعيشان عيشة راضية..

أطرق سيد هنيهة، ثم قال لصاحبه:

- أين هي؟

قال له صبحي:

- لا عليك.

❖ ❖ ❖

(١٢)

دقت العمة باب الشقة التي تسكنها ابنة أخيها سحر الحلواني لأول مرة بعد سنوات بعيدة، وتعرفت مع أخيها إبراهيم على السيدة التي عاشت سحر في ظلها ورعايتها.

واصلت العمة الدق، فتحت امرأة متوسطة العمر الباب مستفهمة عن الزائرة التي لا تعرفها، وتحمل سلة كبيرة على رأسها. قالت:

- أنا عمة الست سحر. وجئت لزيارتها.

بوغتت المرأة، وردّت:

- سحر ليست هنا!

- أين هي؟ وأين الست الكبيرة؟

لاحظت المرأة أن المرأة الريفية قادمة من سفر بعيد، ويبدو عليها إجهاد الطريق، ولديها سابق معرفة بمن سكنوا الشقة من قبل؛ فقالت لها:

- تفضلي يا حاجة. استريحي أولا.

أحضرتْ لها ماء.. فشكرتها العمة، وسألتها:

- أين الست الكبيرة؟

- اختارها الله إلى جواره منذ سنوات.

- الله يرحمها. لك العمر الطويل. وبعد برهة سألت: والست سحر؟

- عاشت فترة وحيدة في الشقة، ثم تزوجت، وانتقلت إلى بيت زوجها.

دهشت العمة، وأصابها الخبر بنوع من الألم، مع أن الزواج عادة خبر سار، ويعدّه الفلاحون غاية كل فتاة، ونوعا من الستر على المرأة، يحميها ويصون عرضها. كانت تتمنى أن تحضر عرسها مع أبيها وعائلتها جميعا ليكون لها عند الزوج مكانة واعتبار، كما هي العادات المتأصلة في الأرياف.

بلعت العمة ريقها ، وسألت المرأة:

- وهل أنت من أقارب الست الكبيرة؟

- أنا امرأة ابنها. وبعد لحظة صمت، أضافت:

- بعد زواج الدكتورة سحر، انتقلت مع زوجي والأولاد إلى الشقة.

قالت العمة ورأسها يدور بالأسئلة والأسى وتعب الطريق:

- وكيف أصل إليها؟

شرحت لها المرأة ما يجب أن تحفظه وهي تتجه إلى عنوان الدكتورة سحر، ثم تركتها واتجهت إلى داخل إحدى الغرف، وأحضرت ورقة وقلما، وكتبت العنوان بالتفصيل، وأوصتها أن تحافظ على الورقة، وعندما تنسى العنوان تقدمه إلى سائق

التاكسي، أو من يدلها على المكان.

نهضت العمة مستأذنة كي لا تتأخر عن ابنة أخيها. فقد مضى منتصف النهار وأقبل المساء المخيف للغرباء، ولعل مشكلة ما تحدث في المدينة الكبيرة التي لا تعرف فيها أحدا. جاملتها المرأة ببعض الكلمات المعبرة عن الترحيب وواجب الضيافة، وكانتا قد تعارفتا، وتأكدت المرأة من جذور القرابة بين العمة وسحر والست الكبيرة يرحمها الله.

- أتركك بعافية.

وساعدتها المرأة على حمل السلة الكبيرة فوق رأسها، وغادرت العمة الشقة التي تربت فيها سحر وعاشت، حتى انتقلت إلى عش الزوجية..

❖ ❖ ❖

كان اللقاء بين العمة وابنة أخيها حارا ودامعا وعاتبا مثل أجواء الخريف التي تلف الإسكندرية:

- لم تزوريني يا عمتي منذ زمن بعيد!
- كنت أنتظرك في القرية يا ابنتي. لقد جئت إليك مع والدك، وتصورت أنك ستترددين علينا، وتسعدين جدتك وأهلك بالزيارة!

تنهدت سحر، وقالت في أسى:

- تعلمين يا جدتي أن أبي لم يرحب بي، وكان منزعجا من زيارتي، وجاء معك لزيارة الست الكبيرة على مضض..

وبعد لحظة صمت طالت بعض الشيء، أردفت سحر:

- تذكرين يا عمتي أنه لم يفكر أن يسألني كيف أعيش، ومن ينفق عليّ، وعلى تعليمي ودراساتي. على فكرة فإنني لست محتاجة إلى مليم واحد من ماله. أمي عملت وشقيت، وأنا عملت وشقيت، وكانت الست الكبيرة تحتضنني لوجه الله، صحيح أنها قريبة لأمي ولكن مَن مِن الأقارب صار يتكفل بأبناء أقاربه الآخرين؟

تساقطت الدموع من عيني سحر، وقالت بحرقة:

- لم أكن أريد منه مالا وإنفاقا. كنت أريد منه حنانا وعطفا. يشعرني أنني ابنته ومن دمه. أعلم أن لديه أرضا أو فدادين كثيرة، لا أنظر إليها، ولا أهتم بها، كنت أنتظر أن يسأل عني مجرد سؤال، من لديه كلب من الكلاب، يسأل عنه إذا غاب، وأنا ابنته ودمه ولحمه وعرضه، ولا يفكر فيّ!

يبدو أن الفتاة كانت في حاجة إلى الفضفضة، والتعبير عن مخزون كظيم من الحزن والأسى فانهمرت عيناها، ودخلت في نشيج عاصف. إنها تعيش بعيدا عن أبيها وعائلتها ما جعلها تنساه تماما ولا تفكر به، ولكن الإنسان كما يقولون حيوان اجتماعي، الابن يحتاج إلى أبيه وأمه وإخوته وأعمامه وأخواله، وأقاربه ليشعر بوجوده وكيانه. من يولد بلا أب وأم ولا أقارب يسعى إلى أن يكون لديه بدائل لهؤلاء ليحس بالحياة أو الانتماء. سحر تحسّ باليتم وأبوها على قيد الحياة. ما أقسى الأنانية حين تدفع الوالد

للتنكر لمولوده! إنه يفقد الإنسانية، والانتماء إلى الفصيلة البشرية، وكان قدر سحر أن يتحصّن والدها وراء أنانيته الصخرية، ولا يعبأ بما وراءها!

ربّتت العمة الكبيرة كتف سحر، واحتضنتها، وحاولت أن تكفكف دموعها، وراحت تهدهدها، حتى خفّت سورة الغضب الحزين أو الحزن الغاضب.

التفتت العمة ناحية إحدى الغرف، فرأت كائنا صغيرا يحبو على الأرض، وجهه مشرق، وابتسامته عذبة، وعيناه أصفى من بحر الإسكندرية في حال سكونه. ابتهجت العمة، وعبرت عن فرحها:

- باسم الله.. ما شاء الله. ابنك يا سحر؟

- أجل!

وخيمت على جبينها سحابة حزن داكنة!

أدركت العمة أن هناك أمرا ما تعانيه الفتاة، وطالما هناك طفل يفترض أن يكون هناك زوج، ولكن لا أثر بارزا في البيت لوجود رجل أو زوج بمعنى أدق.

كانت رياح الخريف في الخارج ترسل إشارات تحمل علامات تغيير الجو والانتقال من الهواء المعتدل إلى الهواء البارد. وربما العواصف الممطرة والأمواج الهادرة.

كان الطفل قد وصل إلى حيث تجلس أمه وعمتها. التقطته العمة ورفعته إلى أعلى، وراحت تقبله في حنان غامر، وهي تكرر «باسم الله.. ما شاء الله» ، وسألت أمه:

- ما اسم المحروس؟
- إبراهيم!
- اسم جده؟
- بلى!
- بعد كل ما جرى ، تسمّينه باسمه؟
- إنه أبي يا عمتي مهما جرى!
- صدق من قال: «الظفر لا يخرج من اللحم».

راحت سحر تجهز طعام العشاء، وقد دبّت فيها روح أخرى غير التي تعوّدتها يوميا،

لم تكن تحدّث أحدا، أو تكلّم أحدا داخل البيت لأنه لا يوجد أحد في البيت غير طفلها. كانت تتوجه بالكلام إلى الطفل الذي لا يفهم ما تقول، اللهم إلا ما يتعلق به من طعام وشراب ونوم، يعبّر عنه بألفاظ مبهمة تحفظها أو بالبكاء وبعض الإشارات، وتلعب معه بالطريقة التي يفهمها فيضحك، أو يحبو هاربا منها في أثناء اللعب.. وها هي عمّتها تكسر النظام اليومي الجامد الذي ألفته، فتتحدث معها وتشاركها همومها. ليتها تقبل أن تجلس معها أياما أو أسابيع. تعلم أن وراءها أولادها وزوجها، وشئون الحيوانات ومطالب الحقل. صحيح أن بعض الأبناء والبنات بمساعدة من العمة المجاورة لهم، ينهض بمثل هذه الأمور، ولكنه لا يمكنه الصمود طويلا بدلا من الأم التي تتحمل مشقة الحياة اليومية. ستحاول معها، ولعلها ترضى، ولعلها لا تصر على الذهاب الليلة.

سألتها عمتها على مائدة الطعام:

- مالك يا ابنتي. أراك مهمومة! أين زوجك؟

تنهدت سحر تنهيدة عميقة، وقالت لعمتها في صوت كله إحباط وحزن:

- إنها قصة طويلة يا عمتي. لا تشغلي بالك الآن. المهم الآن أن تأكلي بشهية، فأنت لم تأكلي منذ الصباح بالتأكيد، وربما لم تفطري لتلحقي بالقطار..

وتلقت منها الطفل كي تفرغ العمة لتناول الطعام.

- قولي يا ابنتي. فضفضي..

أصرت العمة على الفضفضة ومعرفة ما تعانيه بعد أن شعرت بفقدان شهيتها، حزنا على ابنة أخيها.

- في السنة الأخيرة قبل الدكتوراه تعرفت على شاب عربي يدرس معنا. صارحني أن له زوجة وأولادا في بلده، ولكنه يريدني على سنة الله ورسوله، كنت في حاجة إلى من يؤنسني أو يقف بجانبي، بعد أن فقدت السيدة الكبيرة التي رعتني عقب رحيل أمي. كنت وحيدة ضعيفة تنهشها النظرات، وتتربص بها العيون، وكنتُ عرضة في أية لحظة للخطر!

- ولماذا لم تأتي إلى أحضان أبيك وجدتك وعماتك وأهلك؟

- تعلمين موقف أبي، فلمن أذهب؟

- جدتك وعماتك. أنت لحمنا ودمنا؟

- المهم أنه طلب يدي من بعض أساتذتي الذين يعرفونني وصلتي بهم دائمة. أخبرته كل شيء عن عائلتي البعيدة، ولما أراد مقابلة أبي، أفهمته أن مقابلته لا معنى لها. جهز لي هذه الشقة، و في حفل صغير حضره بعض زملائي وزميلاتي وأساتذتي، تزوجني وأنفق بسخاء، وبعد عامين سافر على وعد أن يعود بعد شهور يقضيها مع زوجته الأولى في بلده، ولكنه فاجأني، وأرسل لي ورقة الطلاق!

- قليل الأصل. صحيح!

وأردفت العمة:

- هل كان بينكما خلاف قبل أن يسافر؟

- أبدا يا عمتي. كان طيبا ولطيفا، وفرح حين علم أنني أحمل طفلا، ولكنه مضى دون أن يراه!

- يا سوء بختك... ماذا أقول يا ابنتي! «جات الحزينة تفرح ما لقيتش مطرح».

- النصيب يا عمتي.. النصيب.. الحمد لله.

- ألم يخبرك بسبب الطلاق؟

- اعتذر لأسباب عائلية..!

- وتركك وحدك؟

- أرسل إلى بعض المال، ووعد أنه سيرسل من حين لآخر مبالغ أخرى!

زفرت العمة زفرة تحسّر، وعلقت:

- سامح الله أباك. كان قادرا على أن يكفيك شر هذه المتاعب!
- الحمد لله مستورة يا عمتي. أنا أعمل على كل حال. الولد هو الذي يصعّب على الأمور، ولكن بعض الجارات يقمن باستضافته، وأصحبه إلى العمل أحيانا، وغدا يكبر، وتتحسن الأمور إن شاء الله.

قالت العمة بعد أن تناولت لقيمات قليلة:

- لا بد أن تأتي معي. تعيشين وسط أهلك. سنربّي الولد. لا تحملي همّا.
- كلا يا عمتي. ستبقين معي. مشتاقة إليك. إبراهيم فرح بك ولعب معك.
- تعلمين أنهم في البيت بحاجة إليّ، وعندما تكونين عندنا ستعلمين مدى المشقة اليومية التي نعانيها في الحقل والبيت.
- أعلم يا عمتي، ولكني لا أستطيع أن أترك عملي. وأريدك أن تبقي معنا أسبوعا على الأقل.
- سأذهب الآن رغما عني. اعذريني يا ابنتي. سأعود إليك قريبا إن شاء الله.

قالت سحر:

- هبط الليل يا عمتي، والجو به لسعة برد، ولن تجدي قطارا الآن. من أجل إبراهيم فلنقض الليلة معا.

وجدت العمة نفسها مضطرة للمبيت أمام إصرار الفتاة، وتأخر الوقت، وصعوبة السفر:

- أمري إلى الله!

وفي غرفة النوم كان الحديث ذا شجون!

❖ ❖ ❖

(١٣)

«الأعزب الصاخب أصبح زوجا هادئا!»

بهذه العبارة افتتح صبحي بطرس أول لقاء معه مذ ودّعه ليلة الزفاف على عروسه الدكتورة ليلي الليموني المدرّسة بالكلية.

ليلي في منتصف الثلاثينيات. رفضت من تقدموا لها من قبل لأسباب شتي، ولكنها رحّبت حين علمت رغبة سيد عبد الله بالاقتران بها. كانت مسوّغات القبول أكثر من مسوغات الرفض، فقد وصلت أو أوشكت أن تصل ما يسمّى سن اليأس، وسيطلق عليها حينئذ اللقب الكريه «عانس»، مع أن بعض النساء يفضلن أن يعشن بلا زوج لأسباب نفسية أو اجتماعية، ولا يعبأن بما يقال عن سن اليأس أو العنوسة. كانت ليلى تجد لديها رغبة عارمة في الأمومة، ووجدت في سيد شخصا ملائما لها، فهي لا تتمتع بقدر فائق من الجمال. إنها حسنة الشكل والمظهر، تميل إلى السمرة قليلا، قمحية اللون، وجسمها يميل إلى الاعتدال، ليست نحيفة أو سمينة، عيونها سوداء، وشعرها فاحم ناعم، ووجهها مريح، ثم إنها تعيش مع أبيها الذي أحيل على التقاعد منذ سنوات، وظروفها المادية ميسرة، فقد حصلت على الدكتوراه قبل شهور، وتحسّن دخلها، وقد التقت بسيد في الكلية من خلال العمل بعض المرات على مدى سنوات مضت، وكانت تظنه متزوجا، فهو في منتصف

الثلاثينيات مثلها، حتى جاء يطلب يدها.

كان الدكتور صبحي جرجس بطل زيجة سيد عبد الله من ليلى الليموني. ظل شهورا ينقب في أرجاء الكلية عن زميلات أو موظفات أو طالبات يصلحن للزواج من سيد، ويراعين ظروفه أو شروطه المادية التي كان يعرضها صبحي على العرائس المرشحات، وأهمها أنه لا يملك مالا للشبكة أو المهر أو التجهيز، ولا يمكنه إقامة حفل فخم للزفاف مثل الذي يقوم به أصحاب الحرف والمهن، وعلى العروس أن تشارك معه في التكاليف بصفة عامة.

أبدت ليلى استعدادا تاما للمشاركة، بل بتحمل ما هو أكثر في سبيل أن تتم الزيجة من فارس الأحلام الذي ظهر فجأة، وتم الزفاف بعد شهور قليلة حضره الزملاء، وغاب عنه الأهل والأقارب، وكانت الحجة الواهية لديه بُعد المسافة ومشقة السفر.

ظل سيد محافظا على جو الأسرة. يذهب مع الدكتورة ليلى إلى الكلية ويعودان معا. ينتظرها حتى تنتهي من محاضراتها، أو تنتظره هي حتى يفرغ من عمله.

أنجب سيد بنتين وولدا. لا حظت زوجته أنه لا يهتم بالأولاد. صحيح أنه يستجيب لرغباتهم البسيطة، ولكنه لا يدللهم كثيرا:

أريدهم أن يعيشوا أقوياء!

رد على ملاحظة زوجته.

فقالت له:

- يجب أن يشعروا بلمسات الحنان في البيت.

- لم أشعر بحنان أبي. لم أره إلا نادرا عندما يأتي إلى البيت في الليل لينام.
- الزمان اختلف يا سيد، وأبناؤنا يعيشون عصرا مختلفا.
- ربما. لقد اعتمدت على نفسي، وعلمت نفسي.

صمتت ليلى، وانصرفت إلى بعض شئون البيت، وشعر سيد أن زوجه تريد أن تفرض أسلوبها في تربية الأولاد، وأن تدير المنزل بأفكارها، وأنها تبتعد عنه نفسيا، فقرر أن يعاقبها وفقا لنظرية معلم المحارة القديم.

بعد أيام اشتبك معها لسبب واه، واحتدّ عليها، فمسحت دموعها، وانزوت في إحدى الغرف. لم تر منه هذا الوجه من قبل. كان يبدو في علاقته معها هادئا ودودا، ولم يحاول أن يتجاوز الحدود المعقولة. نعم كانا يختلفان ويتناقشان، ولم تصل الأمور أبدا إلى مثل هذه الحدة التي مارسها لسبب واه.. راحت تفكر وتسأل: لماذا؟

تذرعت بالصبر والأولاد كي تتحمل، وتعبر الأزمة، وفي غمرة أفكارها فوجئت به يدخل عليها الغرفة ويبتسم ابتسامة لزجة، وينحني على رأسها ويقبله، ويعتذر لها. غمرتها السعادة، وإن أبدت في أول الأمر نوعا من التمنع وعدم الرضا، وتعاتبا، وهدأت العاصفة.

❖ ❖ ❖

في مكتبه بالكلية وجد رسالة جاءته بالبريد. كانت الرسالة من أمه أملتها على واحد من إخوته. طلبت منه أن يسرع بزيارتهم

لأن أباه مريض، وقد بذل إخوته ما يستطيعون من أجل علاجه ورعايته، وتخشى أن يوافيه الأجل المحتوم دون أن يراه..

أغضبته الرسالة لا لأن أباه مريض، ولكن لأن أهله يشغلونه بأمور ليس متفرغا لها فيما يرى. إخوته يجب أن يقوموا بكل شيء، فالقرش يجري في أيديهم، ولديهم وقت طويل بعد الانتهاء من أعمالهم، وهم أقرب إلى أبيهم من سيد. يجب أن يعلموا أن لديه عملا يستغرق كل وقته، وأسرة يرعاها وأولادا يحتاجونه. أما هم أي عائلته في السويس فعليهم أن يكفوا عن ملاحقته بمشكلاتهم أو طلباتهم، ويفهموا أن كل طرف يجب أن يدبر أمره بنفسه. ألا يعلمون أن المسافة بينه وبينهم تحتاج إلى سفر يوم كامل من الشروق إلى الغروب؟ وماذا سيفعل هو لو ذهب إليهم؟ هل سيعيد الحياة إلى أبيه؟ وهل كان أبوه يهتم به؟ هل كان يراه إلا في جوف الليل وهو عائد يترنح؟ فليتركوني، لست في حاجة إليهم. لست في حاجة إليهم، ودق المكتب بقبضته بحركة لا إرادية وكاد يطلق صيحة صارخة تسمعها الأقسام الأخرى.

كانت هناك يد على كتفة. التفت فوجد صبحي واقفا بجانبه.

- مالك يا زعيم؟

صمت ولم يرد.

- من عكّر مزاجك يا صديق؟

راح ينفخ، وبصوت يملأه الحنق والغضب:

- كأنني أجلس هنا بلا عمل، ويطلبون مني أن أفرغ لمشكلاتهم؟

- من هم وماذا يريدون؟
- أمي يا سيدي تطلب مني أن أسافر إليها حالا!
- وماذا في ذلك يا سيد؟
- هل أنا تحت الطلب دائما؟

ابتسم صبحي، وقال:

- لم تفعل من أجلهم شيئا يا سيد كما فهمت من ثرثرتك من قبل.
- يكفي أن أعفيتهم من تبعة تربيتي وتعليمي، واعتمدت على نفسي.
- ولماذا لا تقول يكفي أنهم منحوك الحياة، فأمك أرضعتك وربّتك، ونشأتك غلاما يجري في الشوارع والأسواق والدنيا الواسعة؟
- لقد فارقتهم منذ زمان بعيد!
- دينكم يا سيد يقول: وبالوالدين إحسانا؟ والجنة تحت أقدام الأمهات!
- أنا لا أومن بمثل هذا الكلام!

دهش صبحي لما سمعه من صديقه الحميم، وظهر عليه الانزعاج:

- غير معقول! مثلك يا سيد يتجاهل ما يقوله الدين.
- لم أصلّ في حياتي، ولم أدخل مسجدا منذ زمن بعيد!
- هذا شنيع يا سيد. أنا أذهب إلى الكنيسة في المناسبات، مع أني غير متدين! وخطاياي كثيرة كما تعلم.

- لا علاقة لي بالدين أو الفلسفة!

- ألم تسمع نابليون وهو يقول:

«المجتمع بلا دين، كالسفينة بلا بوصلة».

صمت سيد، وألقى برأسه إلى الوراء على ظهر الكرسي، فأخذه صاحبه من يده، وقال هيا بنا لنخرج، ونتنفس هواء الشارع، أظنك انتهيت من العمل. اذهب إلى مكتب الدكتورة ليلى، وأخبرها أننا سنتجول بعض الوقت في المدينة.. ويمكنها أن تعود إلى البيت وحدها بعد أن تفرغ من المحاضرة.

❖ ❖ ❖

مضى سيد وصبحي على قدميهما، واتجها إلى الميدان الرئيسي في المدينة، كانت السينما الوحيدة الملمح الرئيسي للميدان، وبجوارها محلات ومكتبات مدرسية، وعمارات تحمل لافتات الأطباء ومعامل التحليل، ومكاتب المهندسين والمحامين، والشركات التجارية وغيرها. وبقيت السينما بمبناها الملون المزدان بأضواء الكهرباء أول ما يلفت الأنظار. تحتل واجهتها العريضة إعلانات ضخمة، تبرز أهم الأفلام المعروضة، وفي الأسفل بجوار المدخل إعلانات أخرى داخل إطارات زجاجية عن الأفلام التي ستعرض في الأسابيع اللاحقة.

ضحك صبحي وهو يقرأ:

«زوج تحت الطلب- بطولة عادل إمام، فؤاد المهندس، ليلى علوي...».

- ما الذي يضحكك؟

هتف سيد بحدة.

- تذكرت سؤالك ونحن في المكتب: هل أنا تحت الطلب دائما؟

واصل منفعلا:

- ولكني لست زوجا تحت الطلب.

قهقه صبحي:

- كيف تفهم ما يقال يا سيد؟ ماذا جرى لعقلك؟ إني أمزح؟

وبعد برهة:

- كلنا تحت طلب الأب والأم والأهل جميعا. أليست هذه واجبات اجتماعية يا عرب؟

سكت سيد ولم يرد، وتابع صبحي قراءة أسماء الأفلام:

- الحب فوق هضبة الهرم بطولة أحمد زكي، زوجة رجل مهم، بطولة أحمد زكي أيضا، سلام يا صاحبي، بطولة عادل إمام وسعيد صالح، الدنيا على جناح يمامة بطولة ميرفت أمين ومحمود عبد العزيز....

ثم توجه بالسؤال إلى صاحبه:

- تحب أن نشاهد أيا من الفيلمين المعروضين؟

- مزاجي ليس طبيعيا. هيا بنا نذهب إلى البيت.

- لن أذهب معك إلى البيت. سأذهب إلى الاستراحة، وأعدك بصيد ثمين غير سمين إذا أردت. وغمز له بعينه، في شفرة

يعرفها سيد.

- إذا.. مع السلامة.

❖ ❖ ❖

في المساء، بعد العشاء، كان صبحي يصحب صديقه سيد إلى أحد الشوارع الضيقة بالمدينة. توقف عند مدخل بيت مظلم، ولكن صبحي كان يعرف معالمه جيدا. قال لصاحبه: امض ورائي. وراحا يصعدان سلما ضيقا وعند شقة مغلقة توقفا. دق صبحي الباب بنقرات مميزة. انفتحت شراعة الباب عن وجه يألفه صبحي. ابتسمت صاحبته، ورحبت به:

- أهلا سي صبحي. تفضلا..

كان سيد مأخوذا بهيئة المكان. باحة الشقة تجلس فيها بعض النساء شبه عاريات، وفي أوضاع مثيرة، أمامهن زجاجات الشراب والكئوس والأطباق، الحوائط من حولهن حمراء فاقع لونها. انضم صبحي وصاحبه إلى المائدة فأكملا حلقة متناغمة، وأخذت النساء والضيفان في السمر واللهو والشرب، ثم جاءت إشارة سيدة الشقة التي فتحت الباب للرجلين، فقام صبحي وسيد وبيد كل منهما واحدة اختارها من بين الجالسات على المائدة، واستقر كل رجل ورفيقته في غرفة، وراحا ينهلان من نهر الحب.

كانت سيدة الشقة تجلس مع من تبقى من النساء تثرثر، وتنتظر زبائن آخرين، وتسرد سيرة صبحي وذكرياته معها، وتتحدث عن سخائه وكرمه، وهداياه التي لا تنقطع، فهو لم يتزوج مع أنه

تجاوز الأربعين. كان يريد- كما أخبرها- أن يبني نفسه ماديا، ثم فكر في الهجرة إلى كندا ليلحق ببعض أقاربه هناك. كوّنوا ثروات طائلة بعد جهد وتعب. هنا الأمور مختلطة، واستمارة الراتب ثابتة لا تزيد قرشا. إلا بعد سنة كاملة. يضيفون أربعة جنيهات علاوة لا تسمن ولا تغني من جوع. إنه يعيش وحيدا بعد أن سافر إخوته، وماتت أمه وأبوه. لم يبق أحد من أقاربه يسأل عنه أو يهتم به، وفي الكنيسة يقابل بعض المعارف. يحيونه تحية باردة، كل منهم مشغول بنفسه وتدبير حياته اليومية الصعبة. المليونيرات من الطائفة في واد آخر. مشغولون بالصفقات والرحلات إلى الخارج وتنمية ملايينهم. وأصدقاؤه من المسلمين في همّ دائم ومتاعب لا تتوقف، بسبب صعوبات الحياة والمعيشة، وصديقه سيد مثلهم، مع أنه أفضل حالا من كثيرين منهم..

سيدة الشقة تكاد تكون كتابا مفتوحا لما يحمله صبحي في داخله. إنها تتعاطف معه، وتشعر بالأسى من أجله، ومع أنه يمثل مصدر دخل لها فهي تتمني أن يتزوج ويستقر.. ولكن ما باليد حيلة.

فجأة سمعت طرقا عنيفا على الباب. انتهي بفتحه عنوة، وكانت مداهمة غير متوقعة، وصرخات في الليل، وفضيحة في الشارع الضيق!

❖ ❖ ❖

(١٤)

سهرت الدكتورة ليلى حتى قرب الفجر. لم يأت سيد ولا تعرف أين هو؟ بالهاتف أيقظت أباها مع خيوط الفجر ظنا منها أن يكون زوجها قد ذهب إليه لأمر طارئ. لم تجد عنده جوابا، ولكن الرجل حاول تهدئة ابنته، و إقناعها بالصبر والانتظار، وأخبرها أنه سيذهب إلى الاستراحة ليسأل زملاءه هناك، و يطمئنها. لكنها لم تصبر ولم تهدأ ولم تطمئن، وظلت تتحرك في البيت حتى جاء أوان الذهاب إلى العمل، فذهبت، وفتحت مكتبها، واستخدمت الهاتف الداخلي لتسأل عن سيد. فلم يبلّ ريقها أحد.

لفت نظرها أن صديقه الحميم صبحي بطرس ليس موجودا أيضا. اشتعل الخوف في داخلها إلى درجة الرعب..

انطلقت إلى مكتب عميد الكلية لعلها تجد عنده حلا أو جوابا شافيا. ذهبت ظنونها إلى بعيد. فزعت أن يكون قد أصابه مكروه. ماذا تفعل من بعده، وكيف تواجه الحياة بثلاثة أولاد يكبرون سريعا، و يحتاجون إلى يد قوية ترشدهم وتعيدهم إلى الصواب؟

لم تجد العميد. أخبروها أن جهة ما طلبته بمجرد أن دخل المكتب. وسيارته لم تعد حتى الآن. سألت إن كان قد ذهب وحده، أم رافقه أساتذة. فعرفت أنه ذهب وحده. لم يرافقه غير السائق.. توترت أعصابها، وشعرت بجفاف حلقها- هرعت إلى مكتبها، وطلبت

ماء وشرابا ساخنا.. واعتذرت عن عدم إلقاء المحاضرة، ودخلت في دوامة فكر سوداوي عميق، من أجل زوج خرج ولم يعد.

❖ ❖ ❖

خاطب الضابط المختص بقسم الشرطة عميد الكلية، وكانا وحدهما داخل مكتبه المغلق:

- معذرة يا دكتور. استدعيناك لأمر خطير يخص الكلية، ومازال في طيّ الكتمان، ونريده أن يظل كذلك.
- لعله خير إن شاء الله.
- أرجو أن يكون كذلك. وضغط الضابط زرّا بجواره، فدخل الجندي الواقف على الباب، فأشار إليه أن يحضر المتهمين.

لحظات ودخل سيد وصبحي وعليهما ملاءات تغطي جسديهما العاريين، وطأطأ كل منهما رأسه حين بوغتا برؤية عميد الكليّة الذي انطلق يستغفر الله، ويردد: لا حول ولا قوة إلا بالله. وسكت الضابط ولم يتكلم. وظل الصمت سيد الموقف لحظات طويلة، حتى أمر بإعادة المتهمين إلى غرفة الحجز.

سأل عميد الكلية الضابط:

- ماذا جرى؟ وما العمل؟

طلب الضابط من الجندي أن يغلق الباب، وألاّ يدخل أحد، ثم وجه كلامه إلى العميد:

- كما ترى سيادتك- هذه جريمة آداب ثابتة، تم ضبط المتهمين

بالتلبس، وعقوبتها السجن، والفصل من العمل. وقد رفعنا الأمر إلى جهات أعلى، وسيتم الاتصال برئيس الجامعة لأن المتهم صبحي بطرس يمثل مشكلة للدولة بسبب انتمائه الديني، خوفا من تدخل بعض الجهات الداخلية والأجنبية، واستغلال الموضوع لحسابات سياسية، تشكل عبئا على الدولة وهي في غنى عنه، ونحن في انتظار ما تسفر عنه الاتصالات بين الجهات العليا.

- ولكن منظر المتهمين بهذه الصورة يسيء إلى الجامعة، ويشوه صورتها؟
- سيادة العميد: المتهم متهم أيا كان منصبه، ونحن لا نستطيع أن نتصرف قبل أن تقول النيابة كلمتها والمتهم بوضع التلبس الذي ضبط عليه.
- أي سيستمر الوضع هكذا حتى يتم العرض على النيابة؟
- أجل.
- لي رجاء من أجل الجامعة وصورتها..
- ما هو؟
- أن نحضر ملابسهما لتكون جاهزة إذا أسفرت الاتصالات عن طيّ الموضوع، أو بعد العرض على النيابة. ولعل الاتصالات تنتهي إلى إنهاء المسألة وتتولى الجامعة ما بعد ذلك.
- لا مانع من إحضار الملابس، وأتمنى مثلك طيّ الموضوع.

انصرف العميد، آمرا بإحضار الملابس للمتهمين على وجه السرعة، واتصل بالدكتورة ليلى ليطمئنها على زوجها محاولا التخفيف من وقع الصدمة عليها، ولكنها انهارت بعد سماع مكالمته، وسقطت على الأرض، وراحت زميلاتها وزملاؤها يسعفونها دون أن يعرفوا حقيقة المحنة التي تعيشها.

❖ ❖ ❖

في المساء دخل سيد على أولاده منكس الرأس، منطفئ الوجه، كاسف البال. لم يتكلم، وجد أطفاله يندفعون نحوه، وهم يتصايحون: بابا.. بابا..

تندت عيناه بدموع لم تستطع مفارقة محجريهما. استقبلته زوجته بهدوء ذكيّ، يحرص على الأولاد، ويخشى الفضيحة، وينظر إلى المستقبل ويقاوم ما يعتمل في صدرها من قهر وخيبة وإحباط. أحضرت الطعام، وأجلست الأولاد حول والدهم ليتناولوا عشاءهم معه، أما هي فانشغلت بالمطبخ، كي لا تلتقي العيون، أو تجد نفسها غير قادرة على التحكم في مشاعر الغضب أمام الأطفال. قام سيد بعد تناول شيء بسيط من الطعام مع أنه لم يأكل طوال أربع وعشرين ساعة، واتجه إلى غرفة النوم. لم ينم منذ خرج مع صاحبه إلى حيث جرى ما جرى.. فجأة قالت له ابنته الكبرى:

- أين كنت يا بابا؟

رد بما يشبه الهمس:

- مع أحد أصحابي.

- أمي لم تنم حتى الآن. ظلت سهرانة من لحظة خروجك حتى هذه اللحظة.

لم يرد على ابنته، وأفهمها أنه يريد النوم حالا لأنه لم ينم أيضا مثل ماما. وترك المائدة ومضى إلى سريره..

في الصباح فكر أن يذهب إلى الكلية، ولكنه تردد، خوف أن ينظر إليه زملاؤه والموظفون وربما الطلاب فيتذكر جريمته. يشعر بالعار بمجرد التفكير في الحادثة. أول مرة يدخل قسم الشرطة متهما ومفضوحا بهذا الشكل. كيف يواجه النظرات المستنكرة، أو الغاضبة، أو الشامتة، أو المزدرية؟ لا يستطيع مع أنه يقدر على أن يضرب عشرة رجال. هكذا كان وهو معلم محارة، ولكنه اليوم يواجه موقفا من أسوأ المواقف. لا يتعاطف معه أحد، ولا يستغفر له أحد. زوجته لم تكلمه، وهو لم يستطع أن يكلمها، أو ينبس أمامها بكلمة. ترى هل هناك من تتبعه ووشى به؟

أخذ يقلب صفحات الماضي، وتاريخه في الكلية مذ عمل بها، تصفح قائمة أصدقائه، وقائمة أعدائه ومن تشاجر معهم أو احتك بهم، راجع الدفاتر التي في رأسه جميعا لم يجد هناك ما يستدعي أن يتتبعه أحد، أو يشي به أحد. ولكن الوسواس غزا عقله منذ ذلك اليوم. لا بد أن يفتش وينقب، ولابد أن ينتقم ممن كان وراء الفضيحة، مع أنه متأكد أن لا أحد هناك. إنه الوسواس..

في غمرة أفكاره وتردده بين أن يذهب إلى الكلية أو لا يذهب، وجد الهاتف يرنّ، وكان على الجانب الآخر عميد الكلية، الذي

قال له بحزم:

- إني أنتظرك في مكتبي على عجل.
- حاضر يا دكتور!

لم يجد مفرا أن يذهب. أخبر زوجته أن العميد استدعاه ليحضر حالا، فطلبت منه أن ترافقه، ومضيا إلى هناك.

قال له العميد:

- إن رئيس الجامعة ينتظرنا. هيا بنا.

كان صبحي قد سبق بالحضور إلى مكتب العميد. وفي مكتب رئيس الجامعة تكلم الرجل بإيجاز، وبدا حزينا وهو يقول للمتهمين، ومعهما العميد:

- لن أتكلم كثيرا. تدركان (مخاطبا صبحي وسيد) حجم الجريمة والفضيحة للجامعة ولكما. ولولا ظروف الدولة، كانت الفضيحة ستكون أكبر. والحمد لله أن الضباط اتصلوا برؤسائهم قبل تقييد المحاضر، فتم طيّ الموضوع والإفراج عنكما، وأيضا الإفراج عن النساء، وأسندت الإجراءات العقابية للجامعة، ولأننا لا نستطيع أن نفصل «صبحي»، فلن نفصل «سيدا». ولكن وجودكما بعد الآن في الكلية والجامعة مستحيل حفاظا على سمعة الاثنتين، فاختارا الآن الانتقال إلى جامعة أخرى.

اختار صبحي جامعة في أقصى الصعيد، وطلب سيد جامعة في الوجه البحري، ثم قال لرئيس الجامعة:

- وزوجتي؟
- أمامك أسبوعان حتى ينتهي ترتيب الأوضاع المالية في الجامعة الأخرى، وتصفية متعلقاتك هنا، و إخلاء الطرف. وزوجتك ستلحق بك بعد الامتحانات.
- شكرا يا سيادة الرئيس.
- لا تشكرني. ولكن عليك أن تخجل مما فعلت، وألاّ تكرره، وسيكون المحضر الخاص بك في ملفك طول العمر، ولعلك تتوب إلى الله ولتتذكر ما يقوله الناس «كله سلف ودين»، فاهم يا سيد؟
- فاهم يا أفندم!

لحسن الحظ كان عميد الكلية رجلا طيبا. لم يفه بكلمة عن الموضوع، وظل الأمر مكتوما عنده، إلى لحظة مغادرة سيد الكلية متجها إلى الكلية الأخرى، فبدأت تتسرب من داخل غرفة الحجز بقسم الشرطة تفاصيل القصة.. فصلا فصلا، وتنتشر في المدينة الريفية عن طريق الهمس التوالدي، من أذن لأذن ومن شخص لآخر، حتى عرف الناس الموضوع على نطاق واسع، وخاصة بين الأساتذة!

أدركت الدكتورة ليلى أن الخبر صار شائعا بين زملائها وزميلاتها، و يعبرون عنه بالنظرات المختلسة والإشارات الشامتة، دون أن يفصحوا، أو يتكلموا معها، فتمنّت اقتراب اليوم الذي تغادر فيه المكان إلى الكلية الأخرى. لقد غادر سيد وحده، ونزل

في أحد الفنادق كي لا يلتقي بأحد من زملاء المهنة القديمة هناك، أو زملاء الدراسة أو بعض أساتذته في الكلية بقدر الإمكان، وراح يبحث عن سكن مناسب يستقبل فيه أولاده، عند انتقالهم ويبعد عن نفسه شبح الفضيحة الصارخ.

قدم نفسه لعميد الكلية التي درس فيها، وحصل منها على الليسانس والماجستير والدكتوراه. لم يجرؤ أن ينظر في عين العميد. كان مطرقا ساكنا حتى انصرف. أحس أنه في هذه الكلية أكثر أمانا بجوار أستاذه عبده الإسكندراني، الذي عرف بموضوعه من خلال مجلس القطار! كيف وصل الخبر إلى هناك؟ كان سيد مذهولا، وزادت وساوسه أن يكون هناك في مجلس القطار من يتتبعه، مع أنه ليس وثيق الصلة بأعضاء هذا المجلس. يعرف بعضهم بحكم التلمذة والزمالة في أعمال الامتحانات وغيرها.. ولكنه مندهش لتسرب الخبر إلى مجلس القطار!

ظل في الكلية بلا عمل حتى انتهى العام الدراسي الجامعي. في هذه الفترة حثه الأستاذ على التقدم إلى لجنة الترقيات، ليحصل على درجة أستاذ مساعد:

- مضى وقت طويل يا سيد وآن لك أن ترقى!
- ما يشغلني الآن هو الابتعاد عن الفضيحة.

رد على أستاذه الكبير عبده الإسكندراني.، الذي تساءل:

- كيف؟
- أبحث عن عقد عمل في الخارج. أقضي بضع سنوات، يكون

الناس قد نسوا ما جرى، وأعود لأبحث أمر الترقية.

كان الذي أوحى إليه بهذه الفكرة رفيق الفضيحة صبحي بطرس الذي قرر أن يلحق بإخوته في كندا و يهاجر إلى الأبد. أخبره بذلك وهو يودعه في طريقه إلى الكلية التي انتقل إليها بجنوب الصعيد.

فال له أستاذه:

- أظن الإدارة لن توافق على سفرك هذا العام.
- لماذا؟ لقد قضيت في درجة مدرس قرابة خمسة أعوام؟
- من ناحية عملية ينبغي أن تثبت وجودك هنا. على الأقل لمدة سنة، وفي خلالها نبحث عن عقد لك وآخر لزوجتك.. تمهّل يا بني.

شعر سيد أن الأعين تحاصره وتطارده، وتقول له لماذا صنعت الفضيحة، وأنت متزوج، وزوجك لم تقصر تجاهك، وتتحمل خشونتك وسخافاتك؟ كما تقول هذه الأعين إنها بنت ناس تعرف الأصول. لم تضغط عليك، أو ترد على فعلك الفاضح المفضوح، وراحت تسوغ لأبيها الذي لم تصل الفضيحة أذنيه عملية انتقالك إلى الوجه البحري بمسوغات واهية، والرجل يحاول أن يصدق وقلبه لا يصدق. إنه في حاجة ماسة أن تكون ابنته بقربه وقد بلغ أرذل العمر، ووهنت صحته، ويحتاج إلى من يرعاه ويتابعه، ولو بمجرد السؤال الهاتفي. الإحساس بالقرب يبعث الطمأنينة في الرجل. وتتهمك الأعين أنك لا تعبأ بمثل هذه المشاعر، فقد تخليت عن أبيك وأمك، ولم تكلف نفسك عناء السفر لرؤية

والدك المريض، ولكن والد زوجتك لم يكن يريدك أنت. كان يريد ابنته، فلذة كبده، وأحفاده الذين هم أولادك، لأنهم بهجته، وبلسم الحياة المريرة في شيخوخته.. أصحاب هذه العيون واثقون أن طباعك لن تتغير، ولن تنتقل إلى مرتبة الإنسانية..

في المسكن الجديد الذي استأجره لأسرته، لم يتخل في وحدته عن الشراب، وراح يعب أردأ أنواع الشراب وأرخصه، ويلقي به في جوفه المشتعل بالغضب والخيبة والفضيحة حتى مطلع الفجر..

❖ ❖ ❖

(١٥)

انشغل مجلس القطار بما نشرته جريدة معارضة حول الكلية. كانت الجريدة تتناول جانبا من الصراعات التي تدور بين عميد الكلية وأعضاء قسمه العلمي وغيرهم من أقسام أخرى. كان بعضهم يريد إسقاط العميد ليحل مكانه. لم يصبروا عليه حتى تنتهي مدته الرسمية، وهي قصيرة بصورة ما، ولكنهم يرون في المنصب مكاسب كبيرة، دعك من اللقب وما يمثله من قيادة لأكثر من مائتي أستاذ وهيئة مساعدة، ومثلهم أو أكثر من الإداريين والكتبة والعمال. هناك أموال تعود بالقانون على شاغل المنصب من الرسوم التي تفرض على طلاب الدورات العلمية والانتساب والدراسات العليا والطلاب الوافدين والبرامج التي تقدمها الكلية، وغير ذلك من فوائد يتم توزيعها بنسب معينة وفقا للوائح، وقد تجعل من يتمتع بصرفها (العميد والوكلاء وأمين الكلية وبعض موظفي الإدارة) أفضل حالا من المعارين إلى الخارج. الأستاذ الذي يؤدي محاضراته ويفرغ لأبحاثه وقراءاته لا يحظى إلا براتبه الضئيل الذي لا يكفي مظهره الشخصي والتزاماته الأسرية والاجتماعية وكتبه وأبحاثه ومعمله وتجاربه. وهذا النوع من الأساتذة لا يشارك عادة في الشغب الذي يثيره طلاب المناصب، لأنه مشغول بالعلم والمعرفة، أما الباحثون عن المناصب المقاتلين من أجلها فهم آخر

من يفكر في العلم، وسلبياتهم فيه خطيرة.

كانت الصحيفة المعارضة تتحدث عن مخالفات في إنفاق ميزانية الكلية، وانحرافات في قبول بعض طلاب الوافدين، وسرقة أبحاث الترقي، وتعيين معيدين لا يستحقون، وتعديل في درجات الامتحان... اتهامات مرسلة بغير دليل ثابت، وإن ذكرت بعض الأسماء. الصحفي المعارض يصوغ القصة في مبالغة فجة، وصحيفته ترحب بمثل هذه الموضوعات لأنها لا تملك القدرة على المعارضة الحقيقية في مجال الفساد المتجذر لدي بعض المسئولين الكبار والجهات النافذة. فساد الأراضي والمال العام والمؤسسات والشركات الحكومية والسياسة والأخلاق، وهو فساد يخشى المعارضون الورقيون الاقتراب منه، لأنه فساد له أنياب ومخالب، فيجدون في فرقعات الجامعة وما يشبهها فرصة لإثبات الوجود، ويفردون لها صفحات طوالا، وقد يتخذ بعضهم منها مدخلا للضغط على بعض الأساتذة المعنيين للمشاركة في تحقيق بعض المنافع مثل الارتباط ببعض الأساتذة ليكونوا مصادر صحفية، أو دعوتهم لمناقشة بعض الرسائل العلمية المتعلقة بالصحافة وحركة الإعلام أو نحو ذلك، فيذهب بعد المناقشة وربما قبلها، ليفاخر زملاءه بأنه صار صاحب صفة أكاديمية، وأنه يتساوى بأساتذة الجامعة دون أن يحمل درجة علمية، وينسى أن بعض الصحفيين الممتازين، حققوا مكانة تفوق مكانة الأساتذة، ودخلا مضاعفا يقف دخل الأستاذ إلى جانبه في درك سحيق..

تداول مجلس القطار الجريدة، وراحوا يتناولونه بالتعليق. قال أحدهم:

- واضح أن فلانا من قسم (...) من وراء هذا الموضوع.
- ليس وحده. ولكن (علانا) يشاركه التخطيط والترتيب.

قال ثالث:

- إن الصحفي كاتب الموضوع صديق لفلان وعلان، وكان الثلاثة ينتمون إلى التنظيم الطليعي، وهم في أول الشباب، ولديهم قدرة على كتابة التقارير المؤذية بالباطل.

قال الأول:

- إن فلانا يتطلع إلى العمادة، ولكنه لن يصل إليها. هناك من ينافسه.
- من؟
- فلان من قسم(...)، فهو أقدم منه، ووثيق الصلة برئيس الجامعة، ويتردد عليه باستمرار.
- لا أظن. فإن ذقنه تحول دون ذلك.
- وما علاقة الذقن بالعمادة؟
- الذقن الأصلية، ممنوعة أصلا من اعتلاء المناصب، أما الذقن التايواني (وضحك ضحكة قصيرة) فلا بأس بها.
- وصاحبنا من أي نوع؟
- التايواني طبعا!

- إذا سيعين عميدا.
- إنهم يضعون أصحاب الذقون جميعا في خانة التطرف.
- ما رأيك أن صاحب الذقن التايواني يزور ضباط الأمن باستمرار في مكاتبهم بالمديرية، ويكاد لا يفارق ضابط الحرس في الكلية إلا عند المحاضرات، وقد سمعت أنهم وعدوه بالمنصب.
- وأنا سمعت أنهم يرفضون. لأنه يؤذن في أحد المساجد القريبة من بيته، ويصعد منبر الخطابة في بعض الجمع، وهو ما لا يروق الجهات المختصة.
- على كل «يا خبر بفلوس، بكرة يبقى ببلاش».

هتف واحد لم يتكلم من قبل:

- عندما يخلو المنصب، يكون العالم قد تغير آلاف المرات. لا تستبقوا الأحداث.

راح بعضهم يغير دفة الحديث:

- أنسيتم أن اليوم اجتماع مجلس الكلية؟

نظر بعضهم إلى بعض، ثم انصرفوا إلى موضوعات أخرى.

❖ ❖ ❖

جلس سيد عبد الله في مكتبه يحاول أن يشغل نفسه، ويملأ فراغه. كان هاجس الفضيحة يهيمن على تفكيره. يريد أن ينساه. ليس من أجل أن يتطهر ويتوب، لكن من أجل صورته في عيون

الآخرين. يريد أن يظهر بمظهر القوي الشديد الذي لا ينال منه شيء، ولو كان فضيحة تنتهي به في غرفة حجز الشرطة بالملاءة التي تستر جسده، ويجلس على الأرض الإسمنتية مع النشالين، والبلطجية، والمتشردين والمتسولين، والمدمنين، والمدينين، والغارمين، وتجار المخدرات و.... لن ينسى هذه الليلة أبدا. إنها ليلة رهيبة. رفاق الغرفة من المجرمين العتاة يتهكمون على جريمته هو وصاحبه، ويصفونهما بالخيبة والسذاجة في التعامل مع هذه المسألة البسيطة من وجهة نظرهم، ولأن الرفاق ذوو خبرة في كيفية الضحك على البوليس والمخبرين والفرار من قبضتهم الغشوم، فإن سيدا وصاحبه لا يملكان هذه الخبرة أو إن خبرتهما محدودة..

قال لهما بائع مخدرات قديم:

- من الغباء يا أفندي أنت وهو أن تذهبا إلى مكان يرصده البوليس.

لم يرد صبحي أو سيد. فاستكمل البائع تقريعه:

- ألم يكن لديكما مكان أكثر أمانا؟

نظر الرجل فوجدهما قد أطرقا، ونكسا رأسيهما، ولم ينبسا ببنت شفة.

- لم أر أخيب منكما! وأفندية كمان؟ اخص!

من أركان الغرفة جاءت تعليقات المحتجزين ساخنة وساخرة ومؤلمة لا يحفظ سيد منها شيئا إلا وقع سياطها على روحه الميتة؛

لأنه وهو معلم المحارة السابق الذي يجيد فنون العراك والضرب، كان عاجزا عن الرد أو الصد أو الكلام، وكلما همّ أن يقول شيئا من أعماقه الميتة، احتبس صوته، ومات الكلام على فمه، والملاءة على جسده العاري تشعره بعار العجز والوضاعة.

استيقظ على نقرات خفيفة على الباب. دخل شاب قصير القامة يرتدي نظارة مكعبة ملوّنة:

- سلام عليكم يا دكتور!

لم يرد السلام، ولكنه أحس أن هذا الشاب أخذ بيده من لجّة الأفكار القاتلة التي تشعل كيانه.

- كنت أسأل عن الدكتور فؤاد؟

- لم يأت اليوم.

تمهل الشاب، وقال محاولا التقرب من سيد:

- أنا أعرفك يا دكتور، وحضرت يوم مناقشتك للدكتوراه.

- من أنت؟

- أنا خميس.. خميس الفرّان، معيد بالكلية وسأناقش الماجستير الأسبوع القادم، ويشرفني حضورك المناقشة.

طلب من الشاب أن يجلس، ودار بينهما حوار طويل. كان سيد يريد أن يتكلم مع شخص يخرجه من ظلمات الفضيحة الرابضة في صدره المغلق، ووجد في الشاب القشة التي تنقذ الغريق، لم يلق بالا لنزعة الاستعلاء التي كان يتعامل بها عادة مع الطلاب قبل

نقله إلى الكلية. تباسط معه في الكلام، وزاد في تباسطه، وطلب له مشروبا ساخنا، ووعده بحضور مناقشته، وهنأه مقدما:

- من الذي يشرف على رسالتك؟
- الدكتور فؤاد.
- استغرقت مدة طويلة في رسالتك؟
- نعم. قاربت خمس سنوات.
- انشغلت عنها؟
- لا.. هناك ظروف عائلية أخرتني.
- أنت تسكن في قريتك؟
- كلا. انتقلت إلى المدينة، واضطررت.. وسكت لم يكمل.
- اضطررت؟ ماذا؟
- كانت ظروفي صعبة ماديا. أرعى أسرتي في القرية، وأحتاج مصروفات هنا، فاضطررت لإعطاء دروس خصوصية لطلاب الثانوي.
- هذا ما أخّرك عن زملائك؟
- نعم. كان البحث صعبا، ويحتاج إلى ارتياد المكتبات الكبرى في العاصمة والإسكندرية، كما يحتاج وقتا ومالا وجهدا..

أضاف خميس الفران:

- الحمد لله.. استطعت أن أتغلب على الصعوبات، وأن يكون البحث محل إشادة من المشرف.

- تستطيع أن تأتي إلى مكتبي في أي وقت يا خميس. لقد صرت أخي الأصغر.

ما كاد يخرج خميس، حتى جاءته مكالمة محولة على مكتبه:

- آلو.. مين؟

جاءه صوت الدكتورة ليلى:

- سنحضر غدا في قطار الخامسة مساء.

وأغلقت الخط على الفور!

شعر بعودة الألم الممض جراء الفضيحة مرة أخرى. أعلم أن لك حقا يا ليلى، وأنك لم تتعاملي معي كما تتعامل النساء اللاتي يتعرضن لمثل ما تعرضت له. كنت آمل أن تصيح أو تصرخ أو تشتم أو تسب أو تضرب! ولكنها لم تفعل من ذلك شيئا، وأظنها راعت ظروف الأولاد وحرصت ألا يعلموا بما فعل أبوهم، وألا يصل الخبر إلى أبيها الذي يعاني الشيخوخة وحيدا. معها حق، فقد كنت غبيا بكل المقاييس، لماذا فقدت عقلي، وفعلت فعلتي؟ لقد فعلتها وأنا من الضالين..

سأقابلها غدا مع الأولاد، ولعل الفترة الماضية تكون قد أطفأت غضبها، أو قلّلت منه، وسأحاول أن أصلح ما فسد بقدر الإمكان. وقد جهزت الشقة تجهيزا لا بأس به، ولعل ذلك يسهم في تيسير الصعب..

❖ ❖ ❖

فرح الأولاد برؤيته. عانقوه، وهم يهتفون باسمه، أما هي فقد كان وجهها محايدا، ولم تتكلم بكلمة واحدة:

- حمدا لله على السلامة.

- شكرا.

كان ردا جافا صلبا مثل حجر الجرانيت. لم تكن راغبة في الحديث، بل كانت في الحقيقة لا تريد أن تراه، بيد أن حسابات المجتمع تفرض نفسها.

حملتهم السيارة إلى البيت الجديد. جرى الأولاد في أرجائه، وراحوا يلهون ويتضاحكون، أما هي فقد أخذت تفتح الحقائب وترتب الملابس. لقد جمعت ما استطاعت من أغراض، على أن تأتي بقيّتها في قطار الشحن بعد أيام.

ودعها أبوها، وعيناه تنهمران. يقول لابنته وهو يقبل الأولاد ويحتضنهم:

- هان عليك أبوك فيعيش وحيدا؟

يمسح دموعه، ويعاتبها وهي لا تستطيع أن تملك نفسها من البكاء بصوت عال:

- سأكون إلى جانبك دائما يا أبي، لا تحزن!

عرضت أن تستأجر له سكنا بجوارها في الموطن الجديد، ولكنه أبى بشدة:

- لقد عشت عمرى هنا. تريدين أن أترك موطني بعد هذه السنين؟ سامحك الله يا ليلى.

كانت تقرأ أفكار أبيها وتتمزق من داخلها، وفكرت مرّات أن تنهي علاقتها مع سيد، ولكن وجود الأولاد محا هذه الفكرة، فصبرتْ وتحملتْ. قالت لأبيها:

- سأزورك باستمرار، وقد اتفقت مع إحدى السيدات من اللائي يعملن في المنازل لتقوم على رعايتك، وتنظيف الشقة من حين لآخر.

انتزعها القطار من أبيها وهي تمضي حاملة همّه إلى جانب همّها الأصلي، الذي ظلت تفكر فيه حتى وصلت مع الأولاد إلى شقتها الجديدة.

في اليوم التالي صحبها سيد إلى الكلية لتتسلم عملها، وراح هو يتابع عملية إلحاق الأولاد بالحضانة.

❖ ❖ ❖

(١٦)

أول مرة يحضر سيد عبد الله اجتماعا لمجلس القسم بصفته عضوا رسميا. كان قبل ذلك لا يحضر المجلس لأنه كان مدرسا مساعد، وبعد أن صار مدرسا كان عدد القسم هناك، في الكلية السابقة، كبيرا، ويكاد يقتصر على الأساتذة والأساتذة المساعدين. كان يُسمح له أحيانا بالحضور وديا دون أن يكون له صوت؛ بحكم أنه كان المشرف على النشاط الثقافي. هنا صار عضوا رسميا، وهذه أول جلسة يشارك فيها ويدلي برأيه ويؤخذ صوته مع بقية الأعضاء في الموافقة على القرارات التي لا تحظى بالإجماع..

سيطر على المجلس قبل أن يبدأ ما نشرته الجريدة المعارضة عن عميد الكلية والمخالفات التي نُسبت إليه من الجبهة المناوئة، ونشرتها الجريدة على مساحة كبيرة، وبصورة بارزة. قال أحدهم:

- إن رئيس الجامعة أحال الأمر إلى التحقيق.

وقال آخر:

- إن الموضوع مفتعل، ويجب إغلاقه.

قال ثالث:

- لماذا لا يبادر الأساتذة المتفرغون بوصفهم لا يتولون مناصب

إدارية إلى التدخل، وإصلاح ذات البين بين المتصارعين، وخاصة أن العميد بقيت له فترة قصيرة؟

رد أحدهم:

- إنه يتطلع إلى فترة ثانية. هذا من حقه قانونا.

قال الأول:

- لقد عمت الفوضى في عهده، العديد من الأساتذة يغيبون عن محاضراتهم دون عذر، وبعضهم يجلس في مكتبه ولا يدخل المحاضرة، وصار الموظفون أصحاب الأمر والنهي في الكلية. يقف الأستاذ أمام الموظف من أجل خطاب أو مكاتبة، والآخر لا يهتم به، ويتعلل بأسباب واهية كي لا يعمل، ولا ينجز. والعمال مشغولون بتقديم الشاي والقهوة للأساتذة والطلاب، بينما القذارة تملأ المدرجات والمكاتب والطرقات..

تحدث أحدهم لأول مرة:

- عندما تذهب إلى المكاتب في الصباح؛ تجد الموظفين والموظفات يفترشون المكتب، وعليه الفول والطعمية والمخللات والخبز الطازج، لا تعرف من أين يأتون به، وبجوارهم السخانات الكهربية يصنعون عليها الشاي والقهوة، ويستمر ذلك لساعتين أو أكثر. تدخل عليهم يقولون لك تفضل افطر معنا. لا تملك إلا أن تخجل وتعود أدراجك. أين سيادة العميد من كل ذلك؟

قال أستاذ متفرغ:

- كنا طلابا في جامعة القاهرة، ونهاب أن نقترب من مكاتب الأساتذة إلا لحاجة علمية، وكانت للأستاذ مهابة يعرفها المنتسبون إلى الكلية جميعا. أين هذا الآن في كليتنا العتيدة؟ الطلاب يمزحون ويلهون ويجرون ويصرخون أمام مكاتب الأساتذة، ويحولون غرف العمال إلى مقاه تنقصها الشيشة، ويهينون الملاحظين في الامتحانات، ويمارسون الغش علنا، بل يتحول الملاحظ أحيانا إلى «ناضورجي» مثل ناضورجية تجار المخدرات. يقف على باب المدرج والطلاب يغشون، ومهمته تنبيههم إلى مرور رئيس الامتحان أو رئيس الكنترول، وبعد أن ينتهي ويخرج من الباب يستأنفون الغش بصورة طبيعية للغاية!

بدأت فيما يبدو عملية المقارنة بين الماضي والحاضر، والنواح على ما وصلت الأحوال من هبوط وتردٍّ، في العلم والسلوكيات جميعا، الحنين إلى الماضي، أو ما يسميه بعض المتحذلقين أو عشاق المصلحات الأجنبية بالنوستالجيا. أصحاب الحنين معهم حق فقد كنا تحت الاحتلال البريطاني، وكان التعليم المصري مضمونا وشكلا ينافس بعض الدول التي تقدمت الآن. ذكر أحد المتحدثين أن الطب المصري في منتصف القرن الماضي كانت له سمعة مدوية في دولة الاحتلال نفسها، وكان الأطباء المصريون الذين يسافرون إلى لندن، لقضاء إجازة الصيف، يتم إغراؤهم ماليا ليعملوا في مستشفيات بريطانيا العظمى في أثناء الإجازة، وتمنيات بعودة الأطباء المصريين في الصيف القادم للعمل. أين الطب

المصري الآن خاصة لدى عصابات الأطباء التجار الذين يتاجرون بآدمية المرضي وأجسادهم وأعضائهم؟

كان سيد عبد الله يستمع ويندهش، ويتابع ما يقال، ويتمنى أن يشارك، ولكنه لا يملك ما يقال، اللهم إذا كان ما يملكه هو الفضيحة، فلا ثقافة لديه، ولا معرفة، ولا طموح إلا ما يعمر جيبه ومزاجه.

قال الأستاذ المتفرغ:

- إن الانتخابات أفضل علاج للصراعات على المناصب الإدارية في الجامعة بصفة عامة. منصب رئيس الجامعة، والعميد والوكيل ورئيس القسم. الزملاء يختارون من بينهم من هو على استعداد للتضحية وخدمة العلم والقسم والكلية والجامعة، ومدة كل فترة ثلاث سنوات، ومن يثبت جدارته وترضى عنه الأغلبية يعاد انتخابه ثانية.

قال أحدهم رافضا مبدأ الانتخابات:

- إن الانتخابات ستدفع المرشح للمنصب، كي يجامل، ويتهاون، من أجل إعادة انتخابه.

رد الأستاذ المتفرغ بصرامة:

- إن المسئول الحق لا بد أن يطبق القانون. إن لم يطبق القانون فلا قيمة له، ويجب تنحيته بالقانون أيضا.

قال ثالث:

- الانتخابات لها فوائد عديدة، ولها سلبيات أيضا، ولكن منافعها أكثر من عيوبها.
- التعيين بدون قواعد معروفة خطر كبير على الجامعة. لو كانت الأقدمية، وحسن السلوك مثلا؛ فلا بأس، ولكن تدخل جهات مجهولة، وتعيين من يوالي السلطة، أو المقرب إليها يمثل نكبة على العلم والتعليم..

وهنا دخل الدكتور قمر الدين الصعيدي رئيس القسم قادما من محاضرته ليبدأ الجلسة.. وقمر رجل ربعة، أصلع الرأس، يدخن بشراهة، تزوّج مرتين وأنجب ولدا واحدا من كل زوجة، ويحب المال حبا جما، ويتقرب إلى رؤسائه بالنوافل، ويحلم أن يكون وكيلا للكلية قبل أن يحال على التقاعد، ويصير أستاذا متفرغا، ولكنه في تخصصه الدقيق، يبدو مستوعبا لمصادره ومراجعه، ولكن بينه وبين الثقافة العامة أمدا بعيدا..

افتتح الجلسة دون ذكر البسملة كالمعتاد. وأشعل سيجارته الأجنبية وراح يشد أنفاسا بعصبية واضحة غير معروف سببها. كان البند الرئيسي في جدول الأعمال، توزيع جدول المحاضرات أو الساعات للعام الجديد على أعضاء القسم. بدأ في إعلان المواد مادة مادة، وعن المادة الأولى سأل: من يختار؟

تعالت الأصوات وارتفعت الأيدي. خمسة أعضاء طلبوا المادة لتدريسها. ألقى القلم على المكتب، وراح بظهره إلى الوراء، وقال:

- ما رأيكم.. نجري قرعة؟

قال أحدهم:

- أنا عندي كتاب للمادة؟

قال آخر:

- وأنا عندي كتاب!

وهنف ثالث:

- وأنا صاحب التخصص الدقيق!

ردّ رابع:

- ولماذا تحرّمونها على أصحاب التخصص العام ثم إني أقدم طالبي تدريس المادة؟

قال رئيس القسم بانفعال، ووجهه يلمع تحت حبات العرق الدقيقة:

- إذا القرعة هي الفيصل؟

قال الأول:

- لا داعي للقرعة، لأنني درّست المادة من قبل، ولديّ كتاب جاهز لتدريسها!

ارتفعت أصوات الآخرين، وفيها صوت الدكتورة مواهب (كرنبة هانم) دبابة الحرب الصدئة أو الطائرة الشبحية ذات الجناحين الضخمين، فقد رفعت صوتها وكأنها تردح في حارة شعبية، حتى بدت الجلسة سوقا يتبارى فيه البائعون جذبا للمشترين، مع أن البضاعة ليست على ما يرام.

كان سيد مذهولا مما يجري، فقد رأى في الكلية السابقة توزيع الجدول يتم في هدوء. وتنفذ رغبات الأعضاء، في حدود التخصص الدقيق بقدر الإمكان، ويقبل بها الأعضاء دون تذمّر، وحين تظهر رغبات متعارضة يجري حلها بهدوء.. ولكن الوضع هنا مختلف تماما.

على مدي أربع ساعات امتلأت صراخا وتشنجا وتشاحنا، وصلت في بعض الأحيان حد الملاسنات المؤذية والمفاخرات الجوفاء، والترضيات، والتهدئات، انتهت الجلسة بإعلان توزيع الجدول للعام المقبل.

لاحظ سيد أن التوزيع تجاهله، فلم يجد له جدولا، مع أنه عضو أساسي في القسم، وعندما أوشك الدكتور قمر الدين أن ينهي الجلسة وينصرف الأعضاء سأله سيد:

- أليست لي ساعات؟

دهش الدكتور قمرالدين، ونظر في الأوراق التي أمامه، فلم يجد جدولا لسيد عبد الله، فقال له:

- كلا.. نسينا أن نخصص لك جدولا، وتوجه إلى الأعضاء معلنا أن الجلسة ممتدة في الأسبوع القادم لتدبير جدول للدكتور سيد عبد الله!

خيم الصمت على قاعة المجلس، وتركزت العيون على سيد عبد الله الذي أنهى صراع الجدول نهاية مباغتة قلبت الموازين، وجعلت القوم يعيدون التوزيع مرة أخرى في أسبوع آخر، بدءا من نقطة الصفر..

كان توزيع الساعات على الأعضاء نقطة من أصعب النقاط التي تواجه رئيس القسم سنويا. وكان عليه أن يواجه فريقا شرسا من الأعضاء يريد أن يحظى بأكبر عدد من الساعات، في الفِرَق أو الشُّعَب ذات الكثافة الطلابية، ليزيد توزيع كتبه، أو بالأحرى مذكراته، وبالتالي ينمو دخله ويكبر...

ذات يوم سأل واحد من الفريق الطيب زميله من الفريق الشرس:

- لماذا تتصارعون يا أخي بهذه الصورة على توزيع الساعات؟

رد مباشرة:

- رواتبنا ضعيفة وعلينا التزامات أسرية واجتماعية.
- ليكن.. ولكن التعفف مطلوب، والصراع مرفوض!
- الحكومة تقر ضمنا بيع المذكرات، بل تسلّط علينا بعض الصحفيين أصحاب الألسنة الطويلة، لتتهمنا بتكوين الثروات الطائلة من عملية البيع.
- هناك بالفعل من يكونون ثروات حرام من بيع المذكرات، وهم عدد لا يستهان به.
- كيف؟
- تعلم أن المقربين من حزب الحكومة أو قيادة الجامعة يضغطون على العمداء ورؤساء الأقسام، ويحصلون على ساعات كثيرة في كلياتهم وغير كلياتهم، وأعرف مدرسا

ينتمي إلى الحزب كان منتدبا إلى أربع كليات، ومعه ما يقرب من ثمانين ساعة..

أبدي الزميل الشرس اندهاشه:

- غير ممكن..!

- بل ممكن. إنه لا يستطيع أن يحاضر أكثر من عشر ساعات في اليوم. ولا يمكنه الانتقال بين الكليات الأربع ولو ركب طائرة مروحية. ولكنه يوزع الكتب ويستقبل عائدها، ويضع الامتحانات ويصححها ويحصل على مكافأة التصحيح الضخمة!

- سامحني، لا أعرف متى يؤلف كتبا ويلقي محاضرات ويصحح؟

- المسألة لديه في غاية البساطة. علاقته بالسلطة جعلت سمعته تصل الآفاق. والناس تلتمس رضاه. ولأنه لا يفقه علما ولا تعليما، فإنه يسند إلى المعيدين والمدرسين المساعدين في الكليات التي يحاضر فيها كما يفترض، تجهيز المذكرات في الفروع المختلفة، نقلا عن مؤلفين آخرين، بل يسرق كتبا بأكملها، ويضع عليه اسمه. والمعيدون والمدرسون المساعدون يحاضرون بدلا منه ويضعون الامتحانات ويصححون، ويجمعون له الحصاد، وهو يمزح معهم!

سكت الزميل الشرس، ولكن داخله لم يتزحزح نحو التعفف، بل قال:

- ألا نتساوى بمدرسي التعليم العام الذين يفتحون بيوتهم للدروس الخصوصية، وبعضهم تحول إلى مليونير؟
- إنها السياسة التعليمية التي تحتاج إلى إعادة نظر!

❖ ❖ ❖

استيقظت في أحشاء سيد لغته القديمة، وأسلوبه القديم. أيام المحارة لها ضرورتها في هذا القسم. سيأخذ حقه وأكثر من حقه بهذا الأسلوب وتلك اللغة. من يسكت عن حقه يضيع، وقد تجاهلوني تماما وأنا جالس بينهم، فكيف إذا كنت غائبا؟

❖ ❖ ❖

(١٧)

انضم سيد إلى الفريق الشرس في القسم الذي يعتمد لغة خشنة لا تليق بأساتذة الجامعة، وتعتمد على الصوت العالي و إسكات الأطراف الأخرى بالصريخ والصياح. صار من الصعب والأمر كذلك، أن يسود المنطق في عرض الآراء أو المناقشات، وأخذ هو الآخر يرفع صوته في الاجتماعات و يقف في أثناء الكلام، و يلوح بيديه كأنه يتشاجر في الشارع، ولم يقف الأمر عند ذلك، راح يستدعي مواهبه القديمة في التنظيم الطليعي بكتابة المذكرات والتقارير والشكاوى الكيدية، و يرفعها إلى الجهات المسئولة موقعة باسمه أحيانا، وغير موقعة..

نفر منه صديقه فتحي محروس الذي صار أستاذا مساعدا، وأوشك أن يكون أستاذا. كان يتحمله من قبل و يساعده في المواقف الصعبة، و يلتمس له الأعذار. لم يعد يقبل عليه كما كان الأمر في السابق. إنه يكلمه دون حرارة عندما يلتقيان، لا يبحث عنه، ولا يفضي إليه بداخله.. بل لم يعد يهتم به أصلا!

كان ساعده الأيمن الشاب خميس الفران الذي توثقت صلته به بعد أن حصل على الماجستير، وصار مدرسا مساعدا. أقام خميس حول سيّد دائرة مقربة من المدرسين المساعدين والمعيدين، والطلبة والطالبات، تلتف حوله حين يجلس في مكتبه، ولا تغادر

إلا لضرورة، وتنتظر حتى ينتهي من محاضرته، أو اجتماعه أو لقائه مع الأساتذة. أضحت علاقته بخميس حميمة لدرجة أنه كان يزوره في البيت ويجلسان معا في أحاديث نميمة طويلة تتناول أعضاء القسم والأقسام الأخرى في الكلية، إلى جانب وقائع الصراع بين العميد وفريق المعارضين له، بالإضافة إلى تناول أخبار العلاقات العاطفية والمحرمة بين بعض الأعضاء من الزملاء والزميلات، أو مع بعض الطالبات ذوات السمعة السيئة.

كان خميس يخطط لسيد، ويوضح له كيف يواجه بعض المواقف، في القسم والكلية أو في الخارج، ولكنه لم يستطع أن يحل مشكلته مع الدكتورة ليلى التي قررت فيما يبدو أن تقطع علاقتها معه، عدا ما يتعلق بالأولاد، وفيما يجري داخل الكلية أمام الزملاء والزميلات حفاظا على الصورة العامة لزوجين يعملان معا. صارت تنام في غرفة الأولاد، ولا تجلس معه على مائدة، ولا ترتبط به عند الذهاب إلى الكلية أو العودة منها. في الصباح تركب التاكسي ولا تنتظره، وحين تنتهي من محاضراتها تعود مباشرة إلى البيت، ولم تعد تفكر متى يحضر أو يغيب، ولا تسأل عمن يزوره في البيت، أو يزورهم في بيوتهم. كان همها الأساسي، متابعة الأولاد في الحضانة، أو من انتقل إلى المدرسة.

وقد حققت مفاجأة حين حصلت على الترقية إلى أستاذ مساعد دون أن يعلم بذلك، فقد أكملت أبحاثها، وتقدمت بها إلى لجنة الترقية، وحصلت على الدرجة، وفوجئ سيد ذات صباح وهو

يجتاز الباب الرئيسي للكلية بلافتة كبيرة عليها اسم الدكتورة ليلى، وتهنئة بالخط العريض من السادة الأساتذة: العميد والوكلاء وهيئة التدريس بترقيتها إلى درجة أستاذ مساعد، مع أطيب التمنيات بدوام الترقي..

كانت المفاجأة قاسية ومزلزلة. سبقته في الترقية، وحصلت عليها دون أن تتفوه بكلمة عنها. هل هي تنتقم منه؟ هل تعاقبه على فعلته التي تسكن أحشاءه، وتجلده بذكرياتها وأولها عجزه أن يرقى مثلها.

كانت طعنة نجلاء بلا ريب، أشعلت الفضيحة في صدره، وألقت به إلى دوامة الأفكار السوداء مرة أخرى. لم يسعفه خميس الفرّان بأفكار تهدئ من قلقه، وتخفف من آلامه، فجلس في الكلية مع الدائرة المقربة حتى كان آخر من غادرها في المساء.

في البيت واجه الدكتورة ليلى، وهنأها:

- مبارك الترقية.

ردت باقتضاب:

- شكرا.

ولم تزد عليها كلمة واحدة. شعر بالخزي والخذلان. فكر أن يتقدم للترقية، لكن كيف تتحقق، وهو الذي لم يكتب شيئا ذا بال؟ لم يحاول أن يستغل فراغه على مدى السنوات الماضية في كتابة شيء من أبحاث الترقية، أو هو حاول ولم يستطع. إنه يريد مساندة حتي يستطيع، فمن الذي يسانده؟

لم ينم ليله، وظل يفكر في أمر الترقية وزوجه والفضيحة. استقر رأيه أن يذهب إلى أستاذه الكبير عبده الإسكندراني، فهو المنقذ دائما في الأزمات. عرض عليه الأمر، فهوّنه عليه، وسأله عما كتبه من أبحاث، فأخبره أنه لم يكتب شيئا ذا بال. وحدثه عما لديه من موضوعات لم ينجز منها شيئا ذا بال.

طلب منه أستاذه أن يتحرك في موضوعات بعينها، ويستعين بعدد من زملائه في توفير مصادر ومراجع أساسية، وأرسل إلى بعضهم ليساعدوه في الكتابة، كما فعلوا معه في كتابة الماجستير والدكتوراه. ثم توقف فجأة ليحدثه في موضوع أهم:

- اسمع. هناك لجنة للتعاقد مع الأساتذة الذين يرغبون العمل في كليات بالخليج، وتستطيع الآن أن تتعاقد وزوجتك معهم للعام القادم، ويمكنك أن تكتب أبحاثك وتنشرها هناك.

نزل هذا الخبر بردا وسلاما عليه، فقد كان ينتظره منذ زمان لينسى الفضيحة ويحسّن وضعه المادي، ويبدأ عهدا جديدا لا يشعر فيه بآلام الخيبة والعجز.

قال لزوجته:

- سنذهب إلى لجنة التعاقد غدا. كوني جاهزة لنسافر مبكرا، ونعود قبل المساء.

لم ترد بكلمة، وراحت في الليل تفكر. هل تترك أباها، وتطيل حبال البعد؟ وكيف تواجه الأمور لا قدر الله حين يصيبه مكروه؟ وهل لو بقيت هنا تستطيع أن تساعده، وتبعد عنه ما يكره؟ إن

بينهما مئات الكيلومترات، وسفر يستغرق نهارا بأكمله. ثم ماذا يحدث لها وهي وحيدة ترعى الأولاد وما يقتضيه ذلك من جهد؟ أليس من الأفضل الذهاب معه ليتحمل مسئولية أبنائه، وفي الوقت نفسه تتاح لها فرصة توفير بعض المال يساعدها على مواجهة الحياة حين يتنكر لها سيد؟ من الممكن أن يفعل، فلديه القابلية لفعل أي شيء يحقق له منفعة. إنه لا يبالي بأحد، فقد تنكر من قبل لأبيه وأمه وإخوته. لم يدْعُهم في زفافنا، ولم يزرهم مرة واحدة طوال السنوات التي قضيتها معه، فلم أتعرف إليهم ولم يعرفوني. ومع أني لم أقصر في واجباتي نحوه، فقد ذهب مع شخص من طينته إلى مكان موبوء، وتسبب في فضيحة لأولاده تلاحقهم إلى زمن لا يعلمه إلا الله، وقد حرمني وأولاده من أبي وجدهم بنقلنا إلى هذا المكان، فتركته وحيدا يعاني آلامه ومتاعبه.. آه يا سيد الذي فضّلته على كل من تقدموا إليّ، وتنازلت عن الزفاف الفخم والتجهيز اللائق، وقبلت أن أحيا وفق شروطه وظروفه، وكانت النتيجة كما نرى الآن..

أخذتها سنة من النوم، رأت أباها في المنام، كان يلبس ثيابا بيضاء، والابتسامة تملأ وجهه، ويركب باخرة مزخرفة الجانبين، وعليها قلاع بيضاء مثلثة الشكل، وتسير على الرمال تارة، وتمضي في المياه الزرقاء تارة أخرى. نادى عليها بصوت بدا بعيدا جدا:

- يا ليلى ، أنا ذاهب إلى الحج.

انقطع الصوت، ولكنها سمعته مرة أخرى:

- سأدعو لك وللأولاد وسيد عند الكعبة.

ثم واصل الصوت:

- سأحضر لك فستانا من القطيفة التي تحبينها، وأسورة من ذهب.

غاب الصوت، اختفت الباخرة، كان الأفق مشتعلا باللون الأرجواني واللون الأصفر لحظة الشروق....

استيقظت على حركة سيد في الحمام والصالة. تشهّدت، وقالت: اللهم اجعله خيرا، وأحست بانقباض.

عزمت على أن تهاتفه فور عودتها من القاهرة، وستمهد لإخباره بعزمها على السفر إلى الخارج عندما يقترب الموعد. تعلم أن وقع الخبر سيكون صعبا عليه، وقد يسبب له مضاعفات هو في غنى عنها.

ارتدت ثيابها، وحملت بعض أوراقها، وشهاداتها، ومضت مع سيد إلى العاصمة الخانقة، وهناك التقيا برئيس اللجنة. أبلغه سيد سلامَ الأستاذ الكبير عبده الإسكندراني الذي أرسلهما. احتفى بهما الرجل، وطلب منهما الذهاب لموظفين آخرين لتجهيز بعض الأوراق والشهادات الصحية، وموافقة جهة العمل، وحدد لهما فترة ينهيان فيها المطلوب، ثم الحضور لتوقيع عقد كل منهما، وبعده يتابعان الإجراءات اللازمة للسفر.

كان الأمر سهلا وهينا. اسم الأستاذ الدكتور عبده الإسكندراني، فتح الأبواب المغلقة، ووفّر عليهما الانتظار والاختبار، ومزاحمة

الراغبين في التعاقد. قال لها في طريق العودة:

- المقابلة كانت سهلة.

ردت بإيجاز:

- الحمد لله.

- الدكتور عبده رجل طيب وخدوم!

- يستحق الشكر.

- يجب أن نقابله معا ونعبر له عن الشكر.

- إن شاء الله.

❖ ❖ ❖

تدخل القدر لحل مشكلة والد ليلى!

فقد تلقت قبيل السفر بنحو أسبوعين مكالمة هاتفية من أم مصطفى ، السيدة التي تتردد على بيت أبيها لتقوم ببعض شئون المنزل، لتخبرها أن أباها متعب للغاية، ويريد أن يراها. أخبرت الأولاد أن جدهم مريض ويطلب زيارتها، وأنها ستزوره. طلبوا منها أن يرافقوها، فأقنعتهم بالبقاء، وأفهمتهم أنها ستعود على الفور، وكانت في قرارة نفسها تشعر بأن هناك شيئا ما ليس طيبا.

ركبت القطار السريع في الصباح الباكر. وطنت نفسها في الطريق على احتمال الخبر، وتذكرت الحلم الذي رأته صباح ذهابها إلى لجنة التعاقد.

بجوار بيت أبيها رأت سرادق عزاء، تنبعث منه عبر مكبر

الصوت تلاوة للقرآن الكريم، عرفت أن أباها قد غادر الدنيا الضيقة إلى الآخرة الواسعة. انقطعت جذورها بالمكان إلى الأبد. كان الرجل قد شعر بدنو الأجل، فأخبر السيدة أم مصطفي بأوراقه المهمة، وما يمتلكه من مال، لتنفق على جنازته، وأوصاها أن تعيد الشقة المستأجرة إلى أصحاب البيت بعد رحيله، وأن تطلب ليلى ليراها. نفذت السيدة الوصية، وقامت بالواجب، واستقبلت الابنة عند وصولها، وواستها، مع مجموعة الجارات اللاتي حضرن عند ما علمن بوجودها، وجاء بعض جيران الوالد وأصدقاؤه، لتعزيتها و إبداء استعدادهم لتقديم أية مساعدة، وطلبوا منها ألا تقطع حبل المودة، فكلهم أبوها، وأهلها..

دمعت عينا ليلى تأثرا، وشكرتهم على ما قاموا به، وفي الصباح قامت أم مصطفى بتسليمها ما تركه الوالد، وأوضحت لها ما أوصاها به قبل رحيله، ووعدتها أن تقوم ببيع الأثاث و إرسال ثمنه إليها.

شكرتها ليلى، وودعتها، وعادت إلى أولادها، والحزن يملأ قلبها ويكسر روحها، كانت في الطريق تتغني بصوت هامس، وتردد بعض العدّودات التي حفظتها منذ طفولتها في الصعيد. كانت تسمعها من أمها عندما يموت أحد الرجال من الأقارب، وراحت تسري عن نفسها، وتسلو، وتكفكف دموعها الجارية بالمناديل:

قالوا شقية.. قلت من يومي

قسّموا النوايب.. طلع الكبير كومى

❖ ❖ ❖

يا حسرتي لما قالوا لي مات
دبيت على سدري تلات دبات
واتهدّ من حيلي تلات هدّات

❖ ❖ ❖

نخْلَه بَلا حَارِس يُرُدُّوهَا
حُرْمَهْ بلا راجِلْ يِهينُوهَا
نَاقَهْ بَلا جَمَّالْ يفُوتْهَا الصِّيفْ
حُرْمه بلا راجـل هَتِعْمِلْ كِيفْ

❖ ❖ ❖

ولا تحسبيش كل الرجال رجال
رجال السداد ما يتّاقلوا بالمـال
يحموا الولايا و يعلموا بالحـال
و يطلّعوا الغرقان من التيار

كان قلبها ينوح، و يقطر دما من أجل أبيها. لم تحاول أن تعلن الخبر لأولادها، لكن أباهم عرفه من ملامحها الباكية المنطفئة، فسألها:

- هل..؟
- أجل!
- البقاء لله.
- شكرا!

بعد أسابيع كانت الطائرة تقل سيد عبد الله والسيدة حرمه والأولاد إلى مدينة صحراوية بها كلية للبنات، لا اختلاط هناك بين الذكور والإناث. تعمل ليلى في داخل الكلية وجها لوجه مع الطالبات، أما هو فيلقي محاضراته من خلال غرف تسمى الشبكة أو الإذاعة، بها أكثر من جهاز مكبر للصوت تسمعه الطالبات، ومفاتيح متصلة بمقاعد الطالبات والمشرفة عليهن للتواصل بين المحاضر وبينهن.

استطاعت ليلى أن تجذب البنات إليها بقوة شخصيتها، وتمكنها من مادتها، وفتحت للنابهات باب بيتها، وزوَّدتهن برقم هاتفها للمساعدة والاستفسار، فذاع صيتها بين الزميلات والطالبات، وعينتها عميدة الكلية رئيسا لقسمها العلمي.

كان إلقاء المحاضرة عبر الشبكة أو الإذاعة أمرا مزعجا، ومملاّ أيضا، ليس أمام المحاضر من يخاطبه، فهو يتكلم دون أن تناقشه طالبة في معظم الأحيان، وذلك لسبب بسيط يتمثل في أن الطالبات لا يعنيهن فهم المحاضرة أو مناقشة مضمونها مع المحاضر بقدر ما يعنيهن الامتحان أو الاختبار كما يسمى هناك. هن يشترين الكتاب أو المذكرة، ويحفظن الصفحات التي يتناولها الأستاذ في محاضراته، ثم يُجبن على الأسئلة. هناك استثناء قليل من الطالبات المجتهدات، ولكنه الاستثناء الذي يثبت القاعدة.

في أثناء إلقاء المحاضرة تنشغل الطالبات بالمزاح فيما بينهن، أو تبادل صور الأفراح والحفلات، أو الحديث عن الخطيب أو

الزوج أو الولد. كثيرات منهن متزوجات. المشرفة على القاعة والمكلفة بفرض النظام تتركها بمجرد أن يبدأ الأستاذ كلامه عبر الإذاعة، فتمرح الطالبات وتلعب، مع أن مهمتها ضبطهن، ليسمعن المحاضرة. أحيانا يفتح الأستاذ الصوت من الداخل فيأتيه الهرج والمرج كأن القاعة سوق من أسواق القرى ترتفع فيه أصوات المنادين والبائعين والمشترين. بعض الزملاء المصريين يقولون لمن يأخذ الأمر منهم بجدية:

«مشي حالك»!

سيد عبد الله لا ينزعج من إلقاء المحاضرة عبر الشبكة، وسعيد لأنه يقبض راتبا لم يحلم به في مصر، ولا شيء ينغص عليه حياته إلا الدكتورة وصمتها الدائم، وكلامها الاضطراري!

❖ ❖ ❖

(١٨)

كثير من أهل مصر في الخارج يرفع شعار «مشّي حالك» مهما كانت الأحوال غير مرضية. يسعى لضمان الراتب والبقاء في الخارج أكبر عدد من السنين، فالأحوال في مصر لا تسرّ، ولا أحد يسأل عن أحد، والمصري في الغربة لا ثمن له عند الكفيل أو لدى بلاده، معظم الدبلوماسيين في السفارات المصرية مشغولون بتنمية مدخراتهم من العملة الصعبة، والتمديد لخدمتهم في الخارج كي تزداد المدخرات. لا تعنيهم قضايا مواطنيهم ولا قضايا بلادهم. سفارات العالم الثالث تبحث عن مواطنيها وتهتم بهم، ويضعون مصالح بلادهم في مقدمة اهتماماتهم. ولكن سفارتنا تهتم بتحصيل الإتاوات الرسمية، مثلما تفعل الحكومة في القاهرة. وإذا فكر بعضها في فتح نشاط ثقافي أو اجتماعي يلتقي حوله المصريون العاملون في الخارج، فهو للرصد والمتابعة لمن تكون أفكارهم أو آراؤهم مغايرة لما تقوله السلطة في القاهرة.

الطبقة الحقيقية التي تمثل زبدة المجتمع المصري وهم أهل العلم والمعرفة غير سعيدة في وطنها، ويدفعها الشقاء إلى الغربة، فهل تنتظر شعارا غير «مشّي حالك»؟

سيد عبد الله أمضى ثلاث سنوات، ويحب أن يعيش هنا بقية العمر، ولذا يؤمن أيضا بمبدأ «مشّي حالك»، وهو على استعداد

لفعل أي شيء وإرضاء من يبقونه بأية صورة، وليس بضميره. في الصباح وهو يقود سيارته المستعملة التي اشتراها من سوق المستعمل يعد نفسه في الذروة من بني جلدته حين يمر عليهم ويراهم يجلسون على الأرصفة بعيدا عن الكفيل الذي يدفع له العامل مبلغا شهريا مقطوعا، ولا شأن له إذا وجد عملا أو لم يجد. ينتظرون ومعهم جنسيات أخرى من يدعوهم إلى العمل في البناء والمحارة والنقاشة والنجارة والسباكة والخرسانة، وحمل الطوب والزلط والرمل والإسمنت. يطلب صاحب العمل شخصا واحدا فيهبون عليه كالعاصفة. عشرات يتجهون نحوه قبل أن يعلن عن طِلْبته، فيكاد يختنق تحت زحامهم وضغطهم. كثرتهم تهبط بالأجر إلى أدنى مستوى، من يحوز الرضا بالأجر القليل يعد محظوظا، وكثير منهم يعود إلى مأواه بلا عمل!

من أجل أن يثبّت سيد أوتاده فإنه على استعداد أن يفعل أي شيء. يتقرب إلى أهل البلاد بكل السبل، ينافق ويبتسم ويضحك ويمزح بطريقته اللزجة، مع أنهم لا يحبون المزاح ولا النفاق، يذهب إلى الصلاة عند مواعيدها، بدون وضوء، ويتقدم إلى الصفوف الأولى ليراه من يعنيهم الأمر، مع أنه لم يصلّ من قبل، ولم يدخل مسجدا إلا مرات نادرة مرتبطة بصلاة الجنازة.

ذهب ذات يوم إلى جهة رسمية، وأبلغهم أن زميلا له يوزع كتبه على الطالبات وتتضمن أفكارا غريبة تشكك في الإسلام. كانا قد اختلفا حول الغرفة الخاصة بالشبكة التي يتحدث منها أحدهما إلى

الطالبات. أصر سيد أن يفرض رأيه مع أن هناك غرفا أخرى يستطيع أن يؤدي من خلالها محاضرته، واحتدّ على زميله، وتشاحنا، فأراد الانتقام منه و إثبات الولاء للجهة التي يعمل لديها. فوجئ الزميل أن خطباء المساجد في الحي الذي يصلي فيه يتناولونه دون أن يذكروا اسمه و يشنون عليه حملة ضارية، و يعدونه عدوا للإسلام!

كادت المسألة تكبر، و يقدم الزميل إلى القضاء، لولا تدارك الموضوع وتدخل بعض أهل البلاد العقلاء ممن يعرفون الرجل معرفة جيدة و يثقون في اعتداله. فهموا الأمر على وجهه الصحيح. وتأكدوا أن كتب الرجل ليس فيها ما يسيء إلى الإسلام أو غيره، فطو يت صفحة الموضوع، و بقيت في حلوق الزملاء غصة.

كانت الحادثة محل استهجان واستنكار من الزملاء الذين يعملون مع سيد أو يعملون في أماكن أخرى، وهو ما أوغر صدر سيد، وراح يدافع عن نفسه بالإثم، وتجاوز هذا إلى التحرش بهم أو ببعضهم تحديدا من المسالمين الذين لا يحبون الدخول في خصومات أو مشاجرات مع أحد.

في يوم ما احتك بزميل له لسبب واه، وتطور الاحتكاك إلى سباب وشتائم مقذعة من جانب سيد، وكاد يفتك بزميله ضربا لولا تدخل الزملاء لإنقاذ الضحية من يديه، وكان لابد من وقف هذه المهزلة، فرفعوا الأمر إلى المسئولين الذين حوّلوا الموضوع إلى القضاء.

جرت التحقيقات، وأدلى الشهود بتفاصيل ما جرى، وتطابقت أقوالهم، فحكمت عليه المحكمة بالجلد، وتعو يض ضخم.

تحول الأسد الهصور إلى أرنب مذعور!

راح يستجدى الصلح، ودار على الزملاء الذين كان يسيء إليهم ويحتقرهم ويتعامل معهم بلغته القديمة، يرجوهم أن يقنعوا زميله بالتنازل عن القضية.

حين علمت زوجه الدكتورة ليلى بالأمر بكت حظها المنكود. ومثلما واجهت الفضيحة إياها من قبل بالحكمة، من أجل أولادها، فإنها نظرت إلى الكارثة الجديدة بالنظرة نفسها.

إنها لم تهنأ بالإعارة. ثلاث سنوات فقط، وما جمعاه لا يكفي التعويض الذي فرضته المحكمة. إنها تريد أن يسعد أولادها بعمل الأب والأم، على الأقل يعيشون في منزل مملوك لهم وليس بالإيجار، ولكن أباهم يضيع كل شيء، ولا يعبأ بأي شيء.

لقد ذهبت الجهود المبذولة للصلح سدى، ولم يتنازل الضحية عن موقفه من سيد، ومعه حق، بل إن زملاءه الذين شهدوا الواقعة كانوا يشعرون بالامتلاء منه والغضب مما يفعله، ومن سلوكه الغريب المشين بصفة عامة، فأصروا جميعا على أن يلقى عقابه، ليكون عبرة لمن لا يعتبر!

وجدت ليلى نفسها تأخذ زمام المبادرة، وتستخدم الهاتف، وتتصل بالزملاء الذين سمعت عن أسمائهم ويعملون في الكلية أو خارجها، وتتحدث معهم عن الصلح وتستعطفهم باسم الأخوة، والزمالة، والانتماء لبلد واحد، وأخيرا الأطفال الذين لا ذنب لهم إلا كونهم أبناءه.

تحرك الدكتورة ليلى وحديثها إلى الزملاء، ومنهم الضحية بدأ يثمر، ولانت الجبهة المعارضة للصلح، وبعد أخذ ورد استغرق وقتا ليس قصيرا، قبل تنفيذ الحكم، أبدى القوم قبولهم للصلح، واعتذار سيد أمام زملائه جميعا، وأمام الذين شاركوا في الصلح من خارج الكلية.

المشكلة أن المحكمة، ذكّرتهم أن حق الدولة لا يمكن التنازل عنه. أي إن الجلد لا بد منه، وسيتم في ميدان عام على دفعات أسبوعيا، كل دفعة عدد من الجلدات. أما التعويض فهو حق صاحبه، إن شاء قبله، و إن شاء تنازل عنه.

تمت المصالحة، واعتذر سيد، ونُفّذ الجلد أسبوعيا، أمام الناس، شاهده بعض زملائه والسياط تنهال عليه، وتألموا له، وهو يصرخ مرتعدا من العار والألم. وربما رآه أقارب بعض طالباته، وعرفوا من هو؟ هل هذه عقوبة ما اقترفه في الشارع الضيق مع صديقه صبحي بطرس ذات ليلة؟ هل هي عدالة السماء التي لا يؤمن بها تلاحقه وتتحقق بعد سنوات؟ في غمرات الخزي كان يشعر بليلي، وهي توجه إليه نظراتها كأنها سهام مسمومة قاتلة، لم تكن ليلى موجودة في ساحة الجلد، كانت ساكنة في تلافيف مخه. وكانت سياطها أشد من سياط الجلاد، يا له من غبيّ يهدر ما يملكه من أشياء ثمينة دون مقابل!

تعاطف معه زملاؤه، ولكنه لم يحفظ جميلهم. دفعه الوسواس لاتهامهم جميعا بأنهم تآمروا عليه، وكانوا سببا في احتكاكه بزميله

مما أدى إلى حدوث الواقعة وما تلاها. لم يكن يخافت بذلك، بل كان يتهمهم علنا، ويسيء إليهم. كانوا يعملون على تقريبه إليهم بعد الجلد، ويحاولون تضميد جراحه المعنوية ولكن طبيعته الفاسدة، لم تتناغم مع الإيقاع الإنساني. دعاه أحدهم وهو يفطر في الشبكة لتناول الطعام، فرد عليه بفظاظة:

- كيف أفطر مع من ظلموني، وعرضوني للجلد أمام الملأ؟

صدم الزميل بالرد الجاف، فقال له:

- كيف ظلمناك، ونحن الذين أنقذناك من السجن؟

- سجن؟

- نعم سجن.. تتعامى عن الحقيقة؟ تعلم أنك لو لم تتصالح كنت ستدفع التعويض، ولأن ما معك لا يكفي ربع التعويض، كنت ستدخل السجن، حتى تدفع أو يقضي الله أمرا كان مفعولا.

لم يحر جوابا، وتابع زميله فيما يشبه العتاب والتحسر:

- أدعوك للإفطار معي فتتهمني وزملائي بالظلم؟ إنك لظالم عظيم!

لملم الزميل طعامه، فقد انسدّت نفسه، وذهب إلى المكتبة ليتفادى الجلوس معه.

وحدها الدكتورة ليلى كانت تقدّر ما بذله الزملاء من جهد في سبيل الصلح والإعفاء من دفع التعويض الذي لا تملكانه هي وسيد. تعلم أن زوجها يستحق العقاب، جزاء وفاقا، ولكنها من أجل

أولادها تصبر وتتحمل وتداوي وتضمد. لقد شكرت الأساتذة الذين ساعدوا في الصلح، وقدّرت جهدهم الطيب، وطلبت أن يتحملوا سخف سيد ولغته الخشنة، وزعمت لهم أن قلبه أبيض، ولم يكن كذلك بالتأكيد.

ما كان يؤلمها أكثر هو نظرات زميلاتها المصريات بسبب عقوبة زوجها، وكأنها هي التي اقترفت الجريمة. بعضهن يمارس كيد النساء، بسبب تفوقها وتمكنها العلمي، وشخصيتها المؤثرة فيمن حولها، وإعجاب الطالبات بها، ورئاستها لأحد أقسام الكلية. لم تلق بالا وتحصنت بعقلها، وحرصت على الاستمرار في العمل بجدية، والاجتهاد بقدر ما تستطيع في إدارة القسم، وتذكرت أن العميدة عرضت عليها قبل موضوع سيد أن تتولى وكالة الكلية بعد شهور في بداية العام الدراسي الجديد. كانت تظن أن الأمور انتهت بالحكم ثم الصلح، فجاءت الرياح بما لا يشتهي السَّفن!

❖ ❖ ❖

عقب الامتحانات أو الاختبارات سحبوا منهما أوراق التجديد، وسلموهما تأشيرة الخروج دون عودة! تقبلت ليلى الأمر بوصفه نتيجة منطقية لما جرى، وحمدت الله أنه بقي لها ما ادخرته، ولم تدفعه مرغمة في التعويض.

أما هو فقد ازداد هياجه، وطفت لغة المحارة على لسانه من جديد، وعانى منه زملاؤه ومعارفه، وعاد إلى الوطن أكثر توحشا، يشك في كل الناس، يتحرش بالزملاء الكبار والصغار، يسبّ

ويلعن، لا يبالي بألفاظه البذيئة مهما كانت عارية، وراح يتردد على المقهى العريق الذي شهد أيامه القديمة، ويسهر مع رفاقه القدامى، ويستعيد لقبه المفضل «سيد كباية»، وفي سماديره تظهر له ليلى التي تنظر إليه باحتقار، وازدراء، ولا تأبه به إذا حضر أو غاب، فقد كان الأولاد غايتها، وتربيتهم هدفها، ثم إنها أكبت على أبحاثها، واستعدت في صمت للتقدم إلى لجنة الترقية كي تحصل على درجة أستاذ؛ أعلى الدرجات العلمية، وتنافس على المناصب الجامعية.

كان ترقيها وتمكنها العلمي ووجودها المحترم بين الزملاء والزميلات يشكل له عقدة صعبة الحل، ويمثل له حالة من الإذلال، فقد كانت هيئة التدريس بل الموظفون لا يملّون من المقارنة بينه وبينها، والنتيجة لصالحها دائما، وهو ما كان يكتمه، ولا يفصح عنه لأحد حتى لخميس الفران الذي بات يعرف كل شيء تقريبا عن حياته الخاصة وخطواته الشخصية.

في مجلس القسم أخذ يجر «شكل» زملائه المسالمين، ويعارض القرارات التي تتخذها الأغلبية لذات المعارضة، لا يملك اعتراضا منطقيا، أو أسبابا مقنعة، ولكنه يملك صوتا عاليا وزعيقا خشنا، واتهامات جزافية. يعطل أعمال المجلس، ويحاول بعضهم تهدئته، ولكنه يجد آخرين ومنهم مواهب «كرنبة هانم» ينهجون منهجه في الشغب لإثبات وجودهم، وفرض رأيهم ولو كان خاطئا، ولكن الدكتور قمر الدين في نهاية المطاف، يطلب

التصويت، فمرة يجد تأييدا ومرة يجد رفضا، لأن رجل المحارة أخذ في استخدام أساليبه إياها لكتابة المذكرات والشكاوى ضد من يقفون في وجهه ويستهجنون سلوكه الغريب، الذي لا يعبر عن توازن نفسي، ولا شخصية سوية.

في حلقات البحث (السمنار) التي تنعقد لطلاب الماجستير والدكتوراه؛ يجادل بغير علم أو فهم، ويصل به الأمر أحيانا إلى اتهام الطالب المتقدم بخطة للبحث، بنقل الموضوع أو سرقته، وإذا ناقش الخطة لا يملك إلا التركيز في الأخطاء المطبعية أو نسيان بعض البيانات في المصادر والمراجع، وهي أمور يعد الخطأ فيها أمرا واردا، ويمكن تصحيحه بسهولة، ولكنه كان يبغي من وراء ذلك أن يشارك في الإشراف على طلاب الماجستير والدكتوراه، لأنه وهو مدرس لا يجوز له الإشراف منفردا، فكانت طريقته الخشنة وسيلة لترضيته بالإشراف على الطالب مشاركة.

وجد أن أسلوبه يخيف جميع الأعضاء، ورأى أن أغلبهم يتقون شره، ويبتعدون عن الدخول معه في نقاش لا يؤدى إلا إلى إيذائهم بلسانه، وشعر أنهم يسعون لترضيته بأية وسيلة من أجل استقرار القسم، واستغل هذا فكون تحالفا مع المجموعة التي تظاهره في أثناء الجلسات الشهرية، فلا يسمحون في حلقات المناقشة بتمرير الموضوعات للأساتذة الذين لا يخضعون للتحالف أو يرفضون الموافقة على الموضوعات التي يشرفون عليها.

قال أستاذ طيب لزميله الطيب:

- تصور لم أعد أشرف إلا على رسالتين، بينما سيد يشارك في عشرين رسالة، وهي النصاب القانوني للأستاذ؟
- أعلم ذلك. وعليك أن تخضع لسيد ومجموعته كي تشرف على المزيد!
- بعد هذ العمر؟ أخضع- وأنا أستاذ- لهذا المخلوق الذي لا يحسن معالجة فكرة علمية؟
- للأسف، فالقوة معه، ورئيس القسم لا إرادة عنده لوقف المهزلة.
- إلى متى؟
- إلى أن يشاء الله.

وصمت قليلا، ثم أضاف:

- ألا تعلم أنه ومجموعته يطلبون من الطلاب أن يشرفوا عليهم؟
- كيف؟ أعلم أن الطالب هو الذي يبحث عن الأستاذ الذي يشرف عليه!
- هذه مسألة لا أهمية لها عنده. يقول للطالب: لدي موضوع كنت سأبحث فيه من أجل الترقية، أو طلبته مني إحدى الجهات العلمية، وسأهديه لك، وأكتب لك خطته.
- أيستطيع هذا المدرس الضعيف علميا، أن يختار موضوعا ويكتب خطته؟
- الأمر بسيط للغاية. يأتي بخميس الفرّان وأمثاله، ليختاروا

الموضوعات ويكتبوا خطتها، والطالب ينبهر بمن سهّل عليه المسألة، وجعل حلقة البحث توافق على الموضوع ولو تم بحثه قبل ذلك مرات عديدة.

- أستغفر الله العظيم!
- بعض طلاب الدراسات العليا لا يعرفون شيئا عن الموضوعات المختارة، ولم يروا مصادرها ومراجعها، ولكن خططهم مليئة بالمصادر والمراجع التي لم يشاهدوها من قبل، ولم يسمعوا عنها!!
- وإلى متى يظل هذا الفساد؟
- سمعت أن رئيس القسم تناول حبوب الشجاعة، وكتب مذكرة بما يجري في المجلس والسمنار ورفعها للعميد ورئيس الجامعة، وأن الدكتور فؤاد اكتشف بعض الجرائم المتعلقة بالامتحانات وغيرها، وكتب هو الآخر مذكرة ضد سيد!
- أظنه يملك براعة أكثر في كتابة المذكرات والشكاوى، وقد كتب كثيرا منها في الأسابيع الماضية، وقد ذهب إلى جهة أمنية للوشاية بزميل لنا، ولسوء حظه كانت هذه الجهة تتابع الزميل منذ زمان وتثق في نزاهته واستقامته، فرجع خائبا مخذولا!

لم تمض غير أيام ، وكان سيد مطلوبا للتحقيق في مجلس تأديب بعد أن آذى كثيرا من الناس بلسانه وسلوكه. لم يكن يتوقع أن يتعرض لأية معارضة، أو يجد من يوقف غيّه، وهو هذه المرة

متهم بتهم عديدة أخطرها ما يتعلق بالامتحانات، والتحرش بطالبة في الدراسات العليا كان يشرف عليها.

ولأنه لا حيلة له أمام القوة الرادعة، فهو يهرع دائما إلى الأستاذ الكبير عبده الإسكندراني، الذي طمأنه ووعده بالبحث عن حلّ!

❖ ❖ ❖

(١٩)

استطاعت سحر الحلواني أن تجد لها مكانا في الكلية التي يعمل بها سيد عبد الله، وأن تسافر أيام المحاضرات من الإسكندرية إلى العمل وتعود آخر النهار. كبر طفلها واقترب من العاشرة، وكانت سعيدة بتردد عمتها الكبيرة عليها، فتنقل لها أخبار أبيها وجدتها وأقاربها. تبيت عندها ليلة ثم تمضى عائدة في الصباح الباكر، وتبلغ العائلة بما وصلت إليه الدكتورة سحر من وظيفة مرموقة في الجامعة، وتفاخر في القرية بابنة أخيها الأستاذة الجامعية. لم تكن العمة تعرف الفرق بين مدرس وأستاذ، قيل لها إنها أستاذة في الجامعة، ودكتورة أيضا، وهذا مناط الفخر والعز للعائلة.

لم يحاول أبوها أن يتغير حتى النفس الأخير، ظل في شيخوخته المبكرة، يحلم بالمزيد من الأرض، أو الطين كما يسمى في الأرياف. ومع أنه شعر ببعض المتاعب الصحية أخيرا فلم يحاول أن يذهب إلى طبيب، واكتفى بالإسبرين والشاي، وعصب رأسه بالمنديل المبلل. جلس في البيت أسابيع، ثم خرج إلى الهواء وتمشّى على شاطئ النيل، وقد لف رأسه بشملة قديمة، بدا أنه يكح، ويمسك عكازا، وجلس على صخرة، يقسم السيجارة الماكينة، ويلفها في الورق الخفيف كعادته، ثم يمضي عائدا إلى البيت، فيتناول لحم الدجاجة التي طبختها أمه، ومعها الشوربة. تنصحه الأم بالشوربة

كي يعرق و يزول الألم، و يبدو أن المسألة كانت أكبر من الدجاج والشوربة، فقد أخذ يزهد في الطعام، و يتناوله بغير رغبة، حتى توقف تماما عن وضع شيء في جوفه.. وهنا استدعت الأم بناتها وأزواجهن، وذهب أحدهم لإحضار طبيب الوحدة الصحية التي رفض إبراهيم التبرع لإنشائها بقطعة أرض، فأحضر الطبيب معه بعض الأدو ية، وحين فحصه عرف أنها النهاية.

- أعطوه هذا الدواء بانتظام.
- إنه لا يفتح فمه يا دكتور!
- حاولوا بقدر الإمكان، وسأمر- إن شاء الله- غدا لمتابعته.

خرج الطبيب، ورافقه صهر إبراهيم ليودعه، وابتعدا عن البيت عدة أمتار، فمال عليه الطبيب وهمس في أذنه، بأن المر يض في لحظات الحياة الأخيرة، ومن الأفضل التركيز على ما يقتضيه واجب الرحيل، وعليه أن يهيئ أهله للنهاية المؤلمة.

أنفقت الأسرة على سرادق العزاء إنفاقا باذخا، واستأجروا الكراسي المذهبة، والأضواء المبهرة ومكبرات الصوت الشهيرة، فضلا عن أعلام القرّاء في الإذاعة، وذبحوا عجلا ضخما ليأكل المعزّون القادمون من البلاد المجاورة، وخصصوا أنواعا فاخرة من الكعك والمخبوزات التي تصنعها المخابز الإفرنجية في المدينة، مع الحلوى والفاكهة لتوز يعها على القراء والفقراء الذين يلتفّون حول القبر يوم الخميس، وكل خميس حتى الأربعين، بل السنو ية.

حضرت سحر عزاء أبيها، وكانت حز ينة على نفسها، وليس على

أبيها. فقد نسيها طفلة، وتجاهلها عندما رآها فتاة شابة، ولم يسأل عنها بعدئذ ولا اهتم بأمرها وهي أم مطلقة، لها طفل، ويعلم أنها وحيدة في جوف مدينة كبيرة قاسية. وجدت عزاء في رؤية أهلها وعمتها الكبيرة التي كانت تتردد عليها باستمرار في فترات متباعدة، وكانت تشعر بسعادة عندما تزورها، وتبيتُ معها، وتحكي لها عن عائلتها وعن القرية وتشاركها همومها، بعد أن تركها زوجها، وعاد إلى بلاده، ولم يفكر هو الآخر في ابنه، وإن كان يرسل بانتظام مبلغا لابأس يساعد على تأمين حياة جيدة، بعد أن كبر الطفل وصار يحتاج إلى مصروفات في مدرسته الخاصة، وتكاليف أخرى، ولكنها تعاني فراغا أو حرمانا لا يشبعه أو يمتلئ إلا برجل.

قالت لها عمتها مرة:

- ألا تفكرين في رجل يا سحر؟

أطرقت حياء:

- أين هو يا عمتي؟
- لم يتقدم إليك أحد في هذه السنوات؟
- من يعرف أن لدي ولدا؛ يتراجع!

فتتحسر عمتها على شبابها:

- كبدي عليك يا بنتي! شبابك يضيع هدرا.
- أنا راضية بما يأتي به الله يا عمتي.

كانت سحر تكابد الفراغ والحرمان، والشوق إلى رجل. لو

أنها لم تتزوج وظلت عذراء، ما كانت لتشعر بهذا العناء بعد أن جربت أن تعيش مع زوج، وتشبع احتياجاتها الحيوية. كانت في بعض تصرفاتها أمام الآخرين تكاد تفضح نفسها، مثلما فعلت مع الدكتور على صالح في مجلس الكلية. لقد افتتنت به، ووجدت نفسها مندفعة إليه، مع أنها تعلم أنه متزوج، وله أبناء. لقد شغفها حبا، وكان تعيينه وكيلا للكلية أمرا مدهشا بالنسبة لها، بينما كان مجلس القطار يبحث في مسألة ذبحه بالطريقة التي تجعله لا يفكر في قضايا الدراسات العليا أو غيرها، أو يكون له حضور بارز في قرارات الكلية.

بقيت مع ابنها عقب تشييع أبيها عدة أيام بين جدتها وأهلها. قالت لها عمتها الكبيرة:

- سنأتي برجل المساحة في القرية ليتولى قياس الأرض، ويتولى توزيع الميراث بشرع الله في كل ما يملكه أبوك- الله يرحمه- وسيكتب ذلك ويوقع عليه الورثة والشهود.
- جئت من أجل الواجب يا عمة، وليس من أجل الميراث. إني لم أطلب منه في حياته شيئا.
- إنه حقك يا بنتي لا فضل فيه لأحد عليك. وعليك أن تختاري الطريقة التي تكون عليها الأرض، إيجارا أو مزارعة، وكذلك الحيوانات، وحقك سيصل إليك في موعده.
- البركة فيك يا عمتي.

❖ ❖ ❖

عادت سحر، وذهبت إلى الكلية، وعزّاها من عرفوا بوفاة والدها. فوجئت ذات صباح بسيد يدخل عليها مكتبها دون أن يكون معها أحد. قال لها مباشرة:

- تعلمين أني متزوج، ولكن هناك خلافا بيني وبين زوجتي، أدى إلى جفوة منذ زمن طويل.
- وما شأني بهذا؟
- أطلب القرب منك!
- إنك تطلب مُصارعة لا زوجة!
- الزواج ليس مصارعة يا دكتورة.
- الدكتورة ليلى، صديقة عزيزة، وقد عملتُ معها في الامتحانات والكنترول، وهي مثال للأخلاق الراقية والأدب الرفيع. فهل تريدني أن أفسد هذه العلاقة، وأدخل في صراع الزوجة الثانية مع الزوجة الأولى دون سبب؟
- ستكونين في مكان بعيد عنها. بعد العودة من الخليج اشتريت قطعة أرض وبنيتُ فوقها بيتا من عدة أدوار. ستسكنين في دور خاص بك.
- لا أستطيع العيش مع زوجة أخرى، ولاسيما الدكتورة ليلى!
- أليس هذا من الشرع والدين؟
- لا أرفض الشرع ولا الدين. ولكنني لا أستطيع أن أتحمل زوجة ثانية.

- قلت لك إن هناك خلافا بيننا منذ زمان.

- ولماذا لا تسعى لحل هذا الخلاف؟

- إنها رافضة للحل.

- هل جربت أن يتدخل بينكما أحد ممن تثق فيهم؟

- لا..

- إذا اذهب وابحث عن حكم، والله يصلح بينكما.

أحنى رأسه وانسحب يجر أذيال الخزي والإحباط، وراح يبحث عن أحد من مجموعة الصوت العالي في القسم ليثرثر معه ويبلع هزيمته أمام سحر...

لقد كانت تتمنى الزواج بأي رجل، ولو كان الدكتور سيد. ولكنها شعرت أنها كانت موفقة في ردها عليه.

التقت سحر بالدكتورة ليلى، وطلبت منها أن تستضيفها على شاي في مكتبها، ثم قالت لها وهي تبتسم نصف ابتسامة:

- الدكتور سيد زعلان. لماذا؟

بغريزة الأنثى شعرت أن الأمر يتعلق بعلاقتها معه:

- هل قدم شكوى ضدي؟

ضحكت، وقالت:

- لا.. تقدم لخطبتي!

ظهر الاهتمام على وجه ليلى، وكادت تعلن عن غضبها لولا أنها ضبطت نفسها:

- يخطبك لنفسه، أو لغيره؟
- كنت أتمنى أن تكون الخطبة لغيره، ولكنه خطبني لنفسه!
- وماذا كان ردك؟

تبسمت، وسألتها:

- ما رأيك أنت؟

شعرت أنها تمازحها، إذ لو كانت وافقت، ما جاءت لتكلمها، فقالت لها وهي مطمئنة:

- موافقة!

قهقهت سحر، وغمزت لها بعينها:

- يجب أن تتصالحا من أجل الأولاد.
- إن شاء الله.

أدركت ليلى مدى التخبط الذي يعيشه سيد. صمتها أحرقه بنار الفضيحة، وجعل تصرفاته في الشهور الأخيرة طائشة ومجنونة، حتى انتهى به الأمر إلى مجلس التأديب، وطلب الزواج من سحر مباشرة، و إفشاء سر الخلافات بينهما. قدّرت لسحر موقفها، وعملت على رد الجميل إليها. مهما كانت المرأة حانقة على زوجها زاهدة فيه، فهي ترفض أن يتزوج عليها.

لم تكن تعلم بحب سحر لعلى صالح من طرف واحد، وملاحقتها له في الأماكن التي يوجد فيها. الرجل يتعفف، وتحلم سحر أن تملك نصفه وزوجته النصف الآخر. كيف تكون مصارعة إذا

تزوجت سيد، وزوجة طبيعية إذا تزوجت عليا؟ هل هو جنون الحب؟ ولوثة العشق؟ أو الاستجابة لنداء الطبيعة الصاخب؟

تشعر سحر أن الطريق إلى على صالح مسدود. الرجل يتعفف، ويشهد زملاؤه على نقائه، وتساميه على السلوك الحيواني الذي يمثله سيد. يحرص على أداء الصلوات، وينهض للفجر، ويجد في ذلك راحة وامتلاء وقربا من الله. يتعامل مع زميلاته وطالباته كأنهن من أهله، يحرص عليهن ويدفع عنهن أي عدوان أو إساءة ولو كلفه ذلك حياته. تربى على المروءة والشهامة وحب الناس، والتسامح، ورؤية جانب الخير حتى في الأشرار، ينظر إلى الجانب الطيب الذي لا يراه الناس، ويتمنى أن يعودوا إلى الرشد والصواب. لم يعرف عنه منذ مراهقته أنه تحرش بفتاة أو غازلها، أو نظر إليها نظرة خائنة. كان يقول لزملائه: «إن المرأة جميلة، وأحب الزواج الآن قبل الغد، ولكنى لا أحب الحرام».

تعيش سحر حيرة غير مسبوقة، ويدور في رأسها صخب عنيف، ماذا تفعل بعد إخفاقها الذريع في الاقتراب من على صالح؟

إنها في جب عميق!

***

بعد أسابيع قامت الدكتورة ليلى بزيارة سحر في مكتبها، وطلبت منها شرابا حلوا يشبه الشربات بدلا من الشاي.

- الشراب جاهز، ولكن لماذا غضبت على الشاي؟

- عندي عريس؟

- لمن؟
- لك.

تورد وجه سحر، وملأ الارتياح داخلها. حاولت أن تخفي فرحها وأرادت ألا تبدو راغبة في الأمر كي تعزز نفسها:

- لقد تفرغت لتربية ابني، ولم أعد أفكر في الزواج، ثم إنني جاوزت الأربعين.

ابتسمت ليلى ابتسامة الأنثى الخبيرة بما تفكر فيه نظيرتها:

- إنه رجل طيب وأرمل، في الخمسين من عمره، ولديه صبية في السادسة، ويملك منزلا بالإسكندرية لا بأس به.
- من هو؟
- الدكتور عصام المصري.
- رأيته أكثر من مرة، ولم أتعامل معه.
- إذا توكلي على الله.
- هل يعرف ظروفي؟
- نعم.
- إذا دعيني أشاور عائلتي في القرية.
- أمامك أسبوع، الرجل ينتظر الرد.

❖ ❖ ❖

كانت مشورة أهلها أمرا شكليا، منذ متى اهتموا بها أو شاركوا في شئونها؟ حضرت عمتها، وزغردت لها. وانتقلت سحر إلى بيت

زوجها، ولبت نداء الطبيعة الصارخ، ووجدت في الدكتور عصام تعويضا عن عذاب الحياة الشاقة، وأضفت على البيت جوا من الهدوء النفسي والسكينة الروحية، ووجدت لابنها أختا تسليه، وتلعب معه، وصارت في سرّها تدعو للدكتورة ليلى، بل للدكتور سيد، الذي قادها من حيث لا يحتسب ودون أن يقصد إلى راحة البال وهدوء السرّ.

❖ ❖ ❖

طالت أيام التحقيق في مجلس التأديب. تم استدعاء أغلب أعضاء القسم للشهادة، وبدت مشكلة التحرش بطالبة الدراسات العليا عويصة ومعقدة وعقوبتها مؤلمة أكثر من إيلام الجلد. الفتاة الطالبة ريفية ساذجة، وأدلت بأقوالها واصفة ما حدث بدقة.

- أنهيت الرسالة، وطلبت من المشرف الرئيسي أمر طبع استعدادا للمناقشة.
- وماذا كان رأيه؟
- قال: راجعي المشرف المساعد أولا.

سألها المحقق:

- هل راجعته؟
- أجل!
- ماذا قال لك؟
- طلب أن أعود إليه بعد شهر. ولما عدت كرر الطلب، وظل

يسوّف شهورا طويلة.

- وبعد؟
- طلب مني....
- ماذا..؟

أغضت حياء ونكست رأسها خجلا، وطال صمتها.

- قولي ماذا طلب منك؟ نحن في تحقيق. قولي بصراحة.

ترددت الفتاة.. وأخيرا قالت:

- طلب أن أنام معه، لأنه في خصام طويل مع زوجته!

❖ ❖ ❖

(٢٠)

انعقد مجلس التأديب المكوّن من نائب رئيس الجامعة وقاض من مجلس الدولة وأستاذ بكلية الحقوق، وأمين السر، في عدة جلسات. بعد تحقيقات مطولة؛ اتخذ قرارا صادما، ورفعه إلى رئيس الجامعة للتصديق عليه.

تأمل رئيس الجامعة القرار، وأراد أن يستكشف بنفسه طبيعة الموضوع الذي أنتج هذا الحكم القاسي. استدعى عددا من أعضاء القسم على مدى أيام متتابعة، وتحدث مع كل منهم على انفراد، واستنتج من إجاباتهم أن المتهم ليس بريئا. كان بعضهم يمسك العصا من المنتصف، ويحاول أن يخفي الحقائق أو جانبا منها، ولكن رئيس الجامعة، كان ذكيا، يوجه أسئلة ماكرة تجعل من أمامه يقول الحقيقة. واستطاع أن يصل إلى أعماق الموضوع خاصة ما يتعلق بالفتاة طالبة الدراسات العليا.

وزيادة في الاحتياط، كي يكون تصديقه على القرار عادلا، ليس به شبهة ظلم استدعى سيد عبد الله نفسه، وأجرى معه حديثا مطولا، فرآه يكذب، ويدعي على الآخرين ظلما وعدوانا، وبدت لهجته لا تمت بصلة إلى لغة الباحثين وأهل العلم والدارسين الجامعيين، لدرجة أنه أخذ يتطاول على الرئيس نفسه بألفاظ غير لائقة، فنظر إليه بعد فترة صمت نظرة ثاقبة، وكأنه يقول له إني

أعرفك معرفة جيدة أكثر مما تعرف نفسك، ووجه إليه سؤالا مباغتا:

- لماذا سمّوك «سيد كباية»؟

تهدلت ملامح سيد على الفور، اصفرّ وجهه، وارتخت يداه، وسكت ولم ينطق، فأمره الرئيس بالخروج، قائلا:

- تفضل!

وبعد انصرافه أخرج الرئيس ملفا من مكتبه، وفيه القرار الصادم ووقع عليه.

كان القرار موجزا وواضحا يقضي بعزل المذكور من وظيفته مع الاحتفاظ بمعاشه. وعلى الجهات المعنية تنفيذ القرار بدءا من تاريخه.

❖ ❖ ❖

ظن سيد أن أستاذه الكبير عبده الإسكندراني سيتدخل، لحفظ التحقيقات عند رئيس الجامعة الحالي. فقد وعده بعد انعقاد مجلس الكلية ذات يوم أن يبحث له عن حل، ويومها رافقه إلى بيته بالمدينة، وحمل حقيبته، وبدا ضارعا ذليلا، وكان الأمل أن يلتقيا بعدئذ ليخبره أستاذه بما فعل، ولكن الرجل شعر بضربة في الصميم حين تم إخراجه من لجنة الترقيات مع آخرين، وحل مكانه فريق آخر من الخصوم الذين لا يتورّعون عن رفض ترقيات تلاميذه والموالين له. ثم إنه تعرض لمضايقات أخرى، كان وراءها الوزير القادم من التنظيم الطليعي، فقد نُحّي من مجلس

إدارة بعض الدوريات الرسمية، وتوقفت دعوته إلى المؤتمرات والندوات والاحتفالات الثقافية، ولم يجد نافذة للنشر في المؤسسة الحكومية، وامتد التجاهل أو الحصار إلى الصحف القومية والحزبية والخاصة. لم يعد قادرا على نشر مقال أو الرد على مقال.. في جلسات مجلس الكلية الأخيرة، كان يتكلم قليلا، ولا يشارك في المناقشات بل إنه تغيب عن بعضها، فذهب إليه عميد الكلية في بيته، ولاحظ أنه يتكلم في وهن:

- افتقدناك يا أستاذنا
- شكرا لكم. متاعب الشيخوخة!
- ما زلت شبابا، ونعتمد عليك في أمور كثيرة.
- أنتم الجيل الجديد الأقدر على حمل المسئوليات.
- متى نراك في الكلية؟
- هناك بعض الفحوصات والتحليلات والأشعات، ولعلها تكون خيرا إن شاء الله.
- نسأل الله أن يمن عليكم بالصحة والعافية.

ثم أردف:

- أستاذي الكريم. إذا احتجت شيئا في أي وقت لا تتردد في الاتصال بي، وسأكون لديك في الحال.
- بارك الله فيك، وأنا ممتن لك ولزيارتك.
- أستغفر الله.

لم تمض على هذه الزيارة إلا أيام قلائل، نقل الأستاذ الكبير بعدها إلى أحد المستشفيات المتخصصة، وظل بها عدة أسابيع، وعاد في سيارة تكريم الإنسان إلى مسقط رأسه، ليدفن في ترابها!

لم يستطع سيد أن يجد نصيرا في محنته. دار على من يعرف ومن لا يعرف. بعضهم يعد ولا ينفذ لأنه لا يملك شيئا، والآخرون لا يعدون، ولا يبدون أي تعاطف معه. ويردونه بكلمات لاتسمن ولا تغني من جوع، فكانت النهاية الأليمة التي واجهها وحيدا!

حين استدعاه عميد الكلية ليبلغه بقرار مجلس التأديب، صاح وصرخ، وهاج وماج، وراح يهذي بكلام لا معنى له. كيف يفعلون بي ذلك؟ أنا بريء؟ لم أرتكب ذنبا. أنا إنسان محترم. أنا شريف. أنا ابن ناس، أنا... انا... أنا....

حضر موظفو المكتب العميد، أخرجوه من عنده، وأجلسوه في محاولة لتهدئته. جاءوا له بالماء واليانسون والشاي. رفض أن يتناول شيئا. وظل يهذي، حاول بعض الأساتذة الانتقال معه إلى القسم، ولكنه تشنج، وأخذت الألفاظ البذيئة تقطر من لسانه. كان بعض الموظفين قد ذهب إلى الدكتورة ليلى ليبلغها بما يجري. وصلت فلم تجده، كان قد غادر الكلية، وركب سيارته وانطلق بها بأقصى سرعة على طريق سريع مليء بالسيارات..

سألت الدكتورة ليلى:

- ماذا حدث؟

أدخلوها إلى العميد، فأخبرها آسفا بقرار مجلس التأديب،

وحكى لها ما فعله في مكتبه، وطلب إليها أن تحاول تهدئته، وأنه يمكنه أن يستأنف الحكم أمام مجلس الدولة، ويمكن إلغاء العقوبة أو تخفيفها إذا كان هناك محام محترف، يفهم القضية جيدا، ويقدم الدفوع المقنعة.

كانت في قرارة أعماقها مقتنعة أنه يستحق العقوبة، فهو لا يحترم نفسه، ولا يراعي الذوق العام، ولا يسلم الناس من لسانه ويده، وهو مدمن، وذيله ملوث، ولم يتغير بعد الزواج إلى الأفضل بل ظل وفيا لتراثه أيام المهنة..

في غمرة التحقيقات كان سيد يجلس مع دائرته الحميمة التي أسسها خميس الفران، ويحدثهم حديث زاهد خلوق نقي، علاقته قوية بالله ورسوله ﷺ؛ وبالصوفية الطيبين المتسامحين.

قال لهم مرة:

- كان الرسول- عليه الصلاة والسلام- يأكل ما يمسك رمقه، وكان ينام جائعاً يربط الحجر على بطنه من شدة الجوع، ويصحو صائماً، وكانت تُؤتى إليه الأموال فلم يدخر منها شيئاً ووزعها على الفقراء. مات ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير، وكان يلبس البردة الغليظة، وكان ينام على الحصير.

فقال له معيد ماكر:

- ولكنك يا أستاذنا تحب المال حبا جما، وسبق أن قلت لنا: المال عصب الحياة وأساسها.

شعر بخبث الفتى، ورغبته في إحراجه:

- في شبابي كنت أومن بذلك فعلا، ولكن العمر يجري، ولا يبقى إلا العمل الصالح.

انبعثت ضحكات قصيرة من بعضهم لأنهم يعلمون أن ما يقوله لا يعمل به، فتجاهل الضحكات، وقال لهم:

- كان الرسول ﷺ يعامل أصحابه بحسن الخلق، فكان أوفى صديق. يرحم الضعيف، ويزور المريض، ويتفقّد الغائب، ويشهد الجنائز، ويَقضي الحوائج، ويلبي الدعوات، ويعدل بينهم، ويشعر بآلامهم، ويؤثرهم على نفسه، وقد قال ﷺ: (مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ).

رددوا جميعا:

- صلى الله عليه وسلم.

وسأله خميس الفران بدهاء واضح:

- تفعل ذلك دائما يا أستاذنا!

لم يجد ما يرد به، ولكنه قال أخيرا:

- المهم أن تفعلوا أنتم.

ثم راح يردد أمامهم أقوالا جمعها في ورقة للإمام الغزالي(أبي حامد)، ويقرأها بتنغيم، ولكن صوته الخشن لا يسعفه:

- «الحرية مع الألم أكرم من العبودية مع السعادة. اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم من ثلاثة أمور: علم، وحال،

وفعل، فأما العلم فهو معرفة ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا وجدت هذه المعرفة ثار منها حال في القلب ، وهي التألم بخوف. وفعل المحبوب، وهو الندم ، وباستيلائه تثور إرادة التوبة وتلافي ما مضى، فالتوبة ترك الذنب في الحال، والعزم على أن لا يعود، وتلافي ما مضى. إن مشاهدة الفسق و المعصية على الدوام تزيل عن قلبك كراهية المعصية، ويهون عليك أمرها، و لذلك هان على القلوب معصية الغيبة لإلفهم لها..

قال مدرس مساعد:

- تحليل عبقري للإمام الغزالي، ولكننا للأسف ، لا نفيد منه.

فرد خميس الفران:

- إن الله غفور رحيم.

الغفران والرحمة لمن يقعون في المعاصي بجهل ولذا تقبل توبتهم. ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [النساء:١٧-١٨].

هكذا استمرت المحاورات التي يعلم الحواريون أن رائدهم يكذب كما يتنفس، ويفعل عكس ما يقول على طول الخط، وإن

كان أحدهم يفسر ذلك فيما بينهم بإدمانه للشرب، وهو ما يؤثر على مخه وأعصابه.

خرجت الدكتورة ليلى تتابع ما فعله سيد، وتسأل من يقفون على باب الكلية إلى أين اتجه بسيارته، وكيف كانت حالته، وهل كان معه أحد؟

كانت تتحدث بينما يشتعل داخلها بالألم والبؤس النفسي والاجتماعي، نتيجة اقترانها بشخص فقد الرشد والصواب، ولم يبال بنفسه ولا أولاده، ولا صورته أمام الناس. ثم يأتي عزله من وظيفته، ليصب مزيدا من الملح على الجرح. صحيح أن لديه بعض المدخرات، التي تهيئ له حياة لا بأس بها، وسيحصل على معاش بسيط نسبيا يساعد على تسيير الأمور. الضربة القاتلة هي العزل من الوظيفة. ماذا سيقول الناس؟ وكيف يواجه الأولاد زملاءهم في المدارس حين يأتي الحديث عن الآباء ووظائفهم؟ وبم يردون على أقرانهم حين يسألونهم: لماذا يجلس أبوهم في البيت؟ ولماذا هو في المعاش قبل الستين؟ ألم تعلموا أن الأساتذة يظلون في العمل بعد سن المعاش؟

لماذا يا سيد وضعت الجميع تحت سيف لسانك؟ ومطرقة يدك؟ الله يسامحك..

ما كادت تعود إلى مكتبها، لتجمع أوراقها، وتأخذ حقيبتها، حتى كان الهاتف الداخلي، يخبرها أن العميد ينتظرها ثانية في المكتب. بادرها بالاعتذار لأنه طلبها:

- ستذهبين بسيارة الكلية إلى المستشفى العام. فقد تلقيت مكالمة بوصول الدكتور سيد إليها. ويبدو أنه تعرض لحادث وهو يقود سيارته التي تهشمت! قلبي معك.

شعرت بانهيار، أدخلها في دوار وإغماءة، سرعان ما أفاقت. حملتها السيارة إلى المستشفى، ويا لهول ما رأت، كان سيد ممددا على سرير في الطوارئ بلا حراك. قال لها الأطباء:

- البقاء لله!

أطلقت صرخة مدوية سمعتها الدنيا، كانت خلاصة لمأساتها مع سيد وبسببه. ولم تشعر بنفسها إلا بعد حين على سرير غير نظيف في غرفة الطوارئ، رأت الناس من حولها يئنون، والمحاليل معلقة فوق رءوس بعضهم، والمكان يعج بالمرضى والمصابين والأطباء والأهالي والمرافقين لا مجال فيه للتنفس. كل شيء حولها يدفعها إلى المغادرة دفعا. سألت عن زوجها، وعرفت أن عددا من الزملاء جاءوا لتجهيزه، استعدادا لدفنه. لم تكن له مقبرة في المدينة، فلم يفكر في بناء واحدة ، وأهله في السويس بعيدون. ضمته واحدة من مقابر الصدقة، وطويت صفحة سيد عبد الله الذي انتقل من المحارة إلى الجامعة.

كان زميله فتحي محروس يبكي بحرقة، ويأسى على زميله الذي كان يمكن أن يرقى بسلوكه وعلمه إلى مرتبة إنسانية أعلى، ولكنه أخلد إلى الأرض، فما كانت المهنة مهما كانت متواضعة قيدا،على صاحبها يمنعه من مباشرة إنسانيته المهذبة. كنتُ سباكا

ولم يمثل ذلك عقدة لي أو سلوكا نشازا في حياتي، وما زلت حتى اليوم أحل مشكلات السباكة في بيتي وبيت أبي. لا تجوز عليك إلا الرحمة. الله يرحمك يا سيد!

أما الدكتورة ليلى فقد كانت تراه، صورة يحتمي بها أولادها، وقد ذابت اليوم هذه الصورة، تاركة وراءها العار والحزن والألم، وراحت تردد في أسى العدودة القديمة:

قالوا شقية.. قلت من يومي

قسّموا النوايب.. طلع الكبير كومى

طلع الكبير كومي.. طلع الكبير كومي.. طلع الكبير كومي.. طلع الكبير كومي.. طلع.. طلع.. طلع..

وذابت الكلمات مع دموعها المدرارة..

المجد في المحرم ١٤٤٠هـ = أكتوبر ٢٠١٨م.

❖ ❖ ❖